

دراسات في الإسلام

٢٤٦

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

مع الرسول صلى الله عليه وسلم

• ميلاد أمة الحق والتوحيد

• في ذكرى المولد النبوي

• شهر ربيع الأول والمدائح النبوية

• الأشهر الحرم في كتاب الله تعالى

الدكتور على العمّاري

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

مع الرسول صلى الله عليه وسلم

- ميلاد أمة الحق والتوحيد
- في ذكرى المولد النبوي
- شهر ربيع الأول والمدائح النبوية
- الأشهر الحرم في كتاب الله تعالى

الدكتور عيسى العطارى

العدد ٢٤٦
السنة الحادية والعشرون
ربيع الأول ١٤٠٢ هـ
يناير ١٩٨٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة

ليس هذا كتاباً في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، فكتب السيرة قديمة وحديثة تملأ المكتبات الإسلامية ، وإنما هي فصول تتصل بالسيرة النبوية رأيتني مشوقاً إلى الكتابة فيها حباً وإخلاصاً ووفاء لصاحب هذه السيرة الكريمة العطرة .
والرابطة بينها جميعاً صلتها الوثيقة بحياة رسولنا محمد — صلى الله عليه وسلم — وبسنته المطهرة .

وما من شك في أن من أحب الأمور إلى النفس المؤمنة أن تكتب أو تقرأ أو تسمع كلمة يتردد فيها اسم الرسول الكريم ، الطاهر الأمين .

وسيجد فيها — كما أعتقد — المخلصون لإيمانهم نفحات طيبة من حياة الرسول ، ونفحات أخرى طيبة تتصل بحياته ، أو حياة بعض صحابته ، وفي ذلك ما يمتع الروح ، ويروى العقل ، ويثلج الصدور ، ويقر العيون .

وربما وجد فيها بعض الناظرين ما يوشك أن ينكره ، وينحى باللائمة على كاتبه ، فليعلم أني كتبت ما كتبت خالصاً لله تعالى ،

واجباً لنفسى ولإخوانى المسلمين التوفيق فى أن نسير على الجادة ،
ونتبع — ما أمكننا — الطريق القاصد ، والنهج القويم .

وقد حرصت على أن تنشر هذه الفصول فى ذكرى مولده — عليه
الصلاة والسلام — فإن أكثرها يدور حول هذه الذكرى ، وحول
مولده المبارك على الإنسانية كلها .

وقد كانت حياته كلها — صلى الله عليه وسلم — جهاداً فى سبيل
نشر دعوته ، وعملاً دائماً شاقاً لأداء الرسالة ، وتبليغ الأمانة ،
فلم يكن عجباً أن نعرض فى هذه الفصول بعض المواقف البارزة
من سيرته ، أو سيرة بعض أصحابه التى كان فيها من عنت الحياة ،
ومن قسوة الأيام ما يتولى العزائم ، ويجلى معادن النفوس الكريمة ،
كما رأيت من واجب المسلم لإخوانه المسلمين ، وأنا أتحدث عن
ميلاد رسولهم أن أقف وقفة قصيرة أداغ فيها عن سنته ، وأرشد
فيها إلى أقوم الطرق لنشرها ، والدعوة إلى العمل بها .

وهذا واجب العاماء بعامة ، ينبغى أن يبينوا للناس دون أن
تأخذهم فى الله لومة لائم ، وهم حريون ألا يسكتهم عن بيان الحق
خوف العامة ، أو مجاملة بعض الخاصة .

ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره .

• مكة المكرمة فى شوال سنة ١٤٠١ هـ

المؤلف

سبتمبر سنة ١٩٨١ م

على محمد حسن (العمارى)

المشعاع الأول

قصيدة نظمها من سنين طويلة في ذكرى مولد الرسول عليه
الصلاة والسلام

شع نور في مظلمات البوادي	فأفاض السنا على كل واد
وتجلى على الحياة شعاع	من ضياء الحقيقة الوقاد
ودها الفرس من هدى الحق رعب	أطفأ النار بعد طول انتقاد
خفقات في قلب إيوان كسرى	زازلت ركنه الرفيع العماد
والمقادير غيضت ماء (ساوى)	لا تسلى عن حيرة السوراد
تلك آيات مولد الرشده ذاعت	تنذر الأرض باقتراب الرشاد

علم الدهر كيف يصغى إليه	ناثئ لم يزل رفيق المهاد
ضارباً في القلاة يرمى شياها	رائح بالعلاء وبالطهر غاد

تلك يا باعث الشعوب نجاد	تعشق الفى ويلها من نجاد
ووهاد تكاد تشكو بنهيا	رحمة الله طوفت بالوهاد
هكذا جاءت الرسالة تمحو	كل عات على اللبائى وعاد

خففت من جباههم وأدالت
حطمت كبرهم على صخرات
جمعهم كالعقد نظماً وكانوا
دولة الظلم والهوى والعناد
عبدوها من دون رب العباد
كرمال الصحواء في كل واد

ما أضل الإنسان أغرب حتى
قل شيء يحن للماء عذبا
ما هذى الجبال تهز بشرا
ولهذى الصحراء تألق نورا
وكان الزمان أعطى عقلا
وكان الأيام تذهب الخطا
وكان الحصاة من بلديتي
للأضواء ليل بات ملقى القياد
غير نفس الفتوى وهو الصادى
أبحس الحماد طعم الشهاد
هل أحست بمقبل الاسعاد
فهو يهفو لساعة الميلاد
و لتحظى بلثم خير الأيادي
فه تفضل الدر من جميع البلاد

يا نبي الهدى إليك شكائى
زعموا ضلة إليك اشتياقا
رب قلب أخاله (نار موسى)
رب قلب أخاله (روح عيسى)
رب قلب أخال فيه شعاعاً
فإذا فيه ألف ليل مخيف
ألف الناس ظلم من لم يسمهم
وأحاطوا بالشك كل برئ
من بنى قرونا أصحاب الأعداى
أين ما قدموا ليوم التنادى ؟
فإذا ردتته فشه الرماد
فإذا مسنى فصاد الحمساد
من ضياء الحقيقة الوقاد
قامم الجنح مفرق فى السواد
غصة البغى أو هوان الأياد
طائف الشك شر ما فى العباد

والبرايا في حلبة الظلم والش
مر وسوق الفساد نخيل طراد

يا نبي الهدى إليك شكائي	من أفاع قديمة الميلاد
نفثت في العقول منها سموماً	وارتضاها الآباء للأحفاد
(بدع) غبرت على الرائد الح	فق فند الهدى عن الرواد
ذكر ميلادك الحبيب تنادى	فيه أقوامنا بغير السداد
يشبه اللهو ما أتوه فهلا	كان للمسلمين يوم جهاد

ميلاد أمة

لم يكن يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول عام الفيل ، الذي وافق التاسع عشر من أبريل سنة إحدى وسبعين وخمسمائة بعد ميلاد المسيح - عليه السلام - لم يكن هذا اليوم إيداناً برسول عظيم فحسب ، وإنما كان - مع ذلك - إيداناً بميلاد أمة يجمعها هذا الرسول على الحق والخير ، وتوهم لها هداية السماء طريقاً محددة ، واضحة المعالم ، مأمونة العثرات لتسير فيها على هدى وبصيرة لتبأغ أسمى الغايات في الدنيا والآخرة .

ولم يكن أحد في (مكة) يدرى شيئاً إلا أنه ولد طفل يقيم في بني هاشم ، وأنه أشاع السرور بين أفراد العشيرة ، ومن يتصلون بها من الحيرة والأصدقاء ، وأشاعت ولادته كثيراً من الرضا في أهل مكة ؛ لأنه سيكون ذكرى والده الذي احتضر في ريعان الشباب بعيداً عن أهله وموطنه .

ولئن كانت الأحداث الغريبة التي لفتت الأنظار في ذلك اليوم اعتبرت فيما بعد إرهاباً بقرب ظهور نبي جديد ، فقد كانت كذلك إشارة إلى أن أمة جديدة ستغير وجه التاريخ ، وستقدم

للإنسانية زاداً من الحضارة والمعرفة والرقى على وشك أن تأخذ مكانها في الوجود الإنساني .

وإذا كان الأفراد ينزعون في أعواقهم إلى ما كان في آبائهم وأجدادهم من سجايا وأخلاق فيأخذون منها ، ويثأون عليها ، فإن الأمم كذلك تسرى فيها الأخلاق التي كانت في خلاياها الأولى التي تكونت منها ، كلاً أو بعضاً على حسب ما تعين عليه البيئة الجديدة ، وتسمح به الظروف والملابسات التي ينشأ فيها الأبناء .

وقد كان الشعب العربي اللبنة الأولى في بناء الأمة الإسلامية . ومهما قيل في العرب الذين عاشوا زمن الجاهلية من أنهم عبدوا الأصنام ، وقلدوا الأوثان ، وخضعوا لعادات وتقاليد وأخلاق غير مرضية ، فإنهم — ولا شك — كانوا — مع ذلك — خيراً من شعوب كثيرة سبقتهم في التاريخ ، أو عاصرتهم ، حتى خضوعهم للأصنام كان — بحسب زمنهم — يهون منه إيمانهم بقوة غيبية قادرة ، يدينون — في الحقيقة — لها ، ويؤمنون بها ، يؤيد ذلك ما تحدث به القرآن الكريم في هذا الشأن عنهم ، فقد جاء فيه حكاية عنهم ، وهم يعنون الأولياء الذين اتخذوهم من دون الله : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »^(١) .

(١) سورة الزمر الآية : ٣ .

ولا كذلك شعوب أخرى بالغت في شأن آلهتها ، وعاشت حياة كاملة تدين بالخرافات والأساطير التي تتصل بهذه الآفة .

فإذا تجاوزنا هذا الأمر وجدنا للعرب أخلاقاً سامية ، وصفات كريمة رفيعة ، قلما وجدت مجتمعة في شعب آخر : الشجاعة ، والكرم ، والوفاء ، وحماية الجار ، ونصرة المظلوم ، والحفاظ على الأعراض ، والترفع عن الدنيايا .

حتى الأخلاق الذميمة التي شاعت بينهم لم يكن مردها إلى ضعف في نفوسهم ، أو دناءة في طبائعهم ، وإنما كان أكثرها إسرافاً في طبائع كريمة ، فالعزة والأنفة ، والاعتداد بالشرف ، كل ذلك حملهم على ألوان من الأخلاق لم تحط من نفوسهم وأن كانت غير مرضية في سلوك الجماعات .

فكانت هذه الطبائع الكريمة — والله أعلم حيث يجعل رسالته — بعض ما نظن أن حكمة الله سبحانه وتعالى اعتدت به حين شاءت أن يكون خاتم أنبيائه ، وأكرم رسله عليه ، وأفضلهم عنده ، أن يكون هذا الرسول من العرب ، أرسله إليهم ليتلو عليهم آيات الله ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وليجعلهم طليعة الأمة الإسلامية ، والхамلين لهذه الرسالة ، يبلغونها ، ويكونون بأنفسهم وبأخلاقهم الإسلامية ، وفضائلهم النفسية هذه الأمة : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو

عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل
لفي ضلال مبين»^(١) .

حقيقة أن العرب ما كانوا يكونون شيئاً لو لم ينزل فيهم القرآن ،
وبيعث الله فيهم هذا الرسول الكريم الأمين .

فقد كان من طبيعة السنن الكونية أن يظلوا قبائل متفرقة متناحرة
يسود بينهم الجهل والجهالة ، وتتخطفهم الأمم من حولهم ،
وأن يظلوا أعداء متنافرين على شفا حفرة من النار — كما تحدث
بذلك القرآن — : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء
فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من
النار فأنقذكم منها »^(٢) .

ولكن من الحق — أيضاً — أنهم حين دخلوا في الإسلام ظهرت
فضائل كانت أصيلة فيهم ، وتكشفت نفوسهم عن معادن كريمة .
طبعها الإسلام بطابعه . وصقلها أيما صقل .

وقد استجاب من أسلم منهم — راضياً — لحمل أمانة الدعوة ،
وحمايتها ، وتبليغها ، ففتحوا الممالك ، وكانوا القدوة الحسنة في
سياسة الشعوب ، وإقامة الحق والعدل فيها ، تلك الشعوب التي كان

(١) آل عمران الآية : ١٦٤

(٢) آل عمران الآية : ١٠٣

دخولها في الإسلام إيماناً بفضائله من جهة ، وإعجاباً بأخلاق مبلغيه وحملته من جهة أخرى .

والإسلام — من غير شك — هذب نفوس العرب ، وأزال عن أخلاقهم كثيراً من الشوائب ، ولكنه — في الوقت ذاته — لم ينزع من هذه النفوس كثيراً من الأخلاق ، بل أبقى عليها ، وسار بها في طريقها الصحيح .

وقد كانت مهمة الإسلام تكون أكثر مشقة لو أنه جاء لقوم حرموا هذه الأخلاق الرفيعة ، لأنه كان عليه — حينئذ — أن يفرس في نفوسهم من جديد كل هذه الأخلاق التي سادوا بها في الجاهلية ، وفي ظل الإسلام .

ومن البديهي أن الذين استجابوا للإسلام في عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، والذين حملوا عنه أمانة الدعوة كانوا صفوة الشعب العربي ، ولا أدل على ذلك من سيرهم التي تحدثنا عن صفاتهم النفسية ، كما تحدثنا عن أثر الإسلام فيهم .

ثم كان الذين استجابوا للدين الجديد من الشعوب الأخرى هم صفوة تلك الشعوب ، ومن هؤلاء وهؤلاء تكونت الأمة الإسلامية التي ولدت — في الحقيقة — يوم ميلاد الرسول .

ولهذه الأمة مق الأخلاق والتقاليد وأنواع السلوك ما يستنفد

أسفاراً كباراً ، ولكننا نؤثر أن نتحدث هنا عن شيء واحد ، هو بعض ما وصف به القرآن هذه الأمة من صفات كريمة وفعية .

يقول الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »^(١) والخطاب للمسلمين .

ويقول سبحانه مخاطباً المسلمين أيضا : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »^(٢) .

ويقول عز من قائل : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »^(٣) « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »^(٤) .

وجاء في سورة (البينة) : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » .

فهذه صفات أربع ، وصفت بها الأمة الإسلامية في القرآن الكريم أنها أمة وسط ، لا تفرط ولا تفرط ، وأنها خير أمة أخرجت للناس أو خير البرية ، وأن المؤمنين هم الأعلون ، وأن العزة لهم دون الناس .

(١) سورة البقره الآية : ١٤٣

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٠

(٣) آل عمران الآية : ١٣٩

(٤) سورة (المنافقون) الآية : ٨

وهذه الأوصاف — على وجازتها — تبين مكانة الأمة الإسلامية من بقية الأمم ، ومظاهر هذه المكانة ، وأسرارها .

فهذه الأمة « خير أمة » ، والمؤمنون الذين تتألف منهم هذه الأمة « خير البرية » ومظهر ذلك أن هؤلاء المؤمنين اختاروا مع رسولهم الفطرة ، وهياها الله لهم ، وأعانهم على السير في طريقها ، والتحلي بما توجهه من جميل الصفات والأخلاق والعادات والعقائد . فهم وسط في كل شيء ، لم يغالوا مغالاة بعض الأمم ، ولم يفراطوا تفريط بعضها الآخر .

فإن الأفراد والجماعات في الماضي والحاضر والمستقبل من يلتزم طرفاً واحداً من كل أمر له طرفان مذمومان : قوم يعبدون المادة ويرون أن الحياة مال وجاه ومتعة ولذة ، وهو ولعب ، وقوم يقدسون الروحانية ، ويرون أن المادة وما يتصل بها دنس ينبغي أن يتزهد الإنسان عنه . كان كل من هذين الفريقين في الشعب اليوناني ، فكان فيه أنصار مذهب اللذة ، وكان فيه أنصار التقشف والعزوف عن متع الحياة ، وكان ذلك في المذاهب الشرقية التي ظهرت في فارس وغيرها ، وكان اليهود — ولا يزالون — يعبدون الذهب ، وكان كثير من المسيحيين في القديم يترهبون ، ويعزفون عن متع الحياة ... وهكذا .

ولكن المسلمين الذين يفقهون حقائق دينهم حق الفقه كانوا وسيظلون وسطاً ، لا يرفضون الدنيا ، ولا يهملون الدين ، وهذا

السلوك هو الذى يلائم الحياة الفاضلة ، الحياة التى تستطيع أن تعطى أصحابها ، وتعطى الآخرين أسباب البقاء .

والناس حين ينصفون فى أحكامهم ، ويرجعون إلى ضمائرهم لا يجدون خيراً من التوسط فى الأمور ، سواء كانت هذه الأمور مبادئ للسلوك ، أو وسائل لتحصيل العيش ، أو شعائر العبادة .

ومن أوضح وأكد ما يستشهد به هنا قول النبي — صلى الله عليه وسلم — : إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ؛ فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى^(١)

ومن وحي الوسطية فى الأمور قال الشاعر العربى :

إذا كنت تبغ العيش فابغ توسطاً فعند التناهى يقصر المتناول
توقى البدور النقص وهى أهلة ويدركها النقصان وهى كوامل

على أنه كان فى الشعراء ، بل فى سائر الناس المفرط والمفرط ، يقول أحد الشعراء :

(١) الحديث الصحيح فى هذا المعنى هو الذى رواه البخارى عن أبى هريرة : (أن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستمعينا بالقدوة والروحة وشئ من الدلجة) .

أما هذا الحديث فقد قال الحافظ العراقى فى تعليقه على كتاب (إحياء الدين) للقرائى : (والبيهق من حديث جابر : (أن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله) . ولا يصح إسناده . (ج ١ ص ٣٥٢ هامش الأحياء) .

ومن عرف الأيام معرفتي بها يبادر باللذات قبل النوائب
ويقول الآخر :

دنيا تراودني كأنــــى لست أعرف حالها
حظر الإلهــــه حرامها وأنا احتमित حلالها

وكلاهما تنكب المنهج الإسلامى القويم .

وقد شرع الإسلام لأتباعه كل ما ينير لهم طرق السلوك فى كل
شئونهم . مع خالفهم ، ومع الناس ، ومع نفوسهم ، وكان الاعتدال
فى الشئون كلها هو أساس هذا التشريع .

وحين وصف القرآن الأمة المسلمة بأنها خير أمة بين سر
ذلك فى نفس الآية .

الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإيمان بالله .

فهى بهذا السلوك الكريم الرفيع تحافظ على أن تبقى للدين الكلمة
العليا ، وأن يظل أتباعه متمسكين به ، فيبقى لهم سر تفوقهم على
الأمم ، وبذلك يشعر كل فرد فى هذه الأمة أنه مسئول عما يفعله
الآخرون حفاظاً على الدين وتعاليمه ، وهذا يقتضى أن تكون عند
الأمر الشجاعة والإيمان والإخلاص ، والنصيحة لله ولرسوله
ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وهذا هو الدين الصحيح كما أخبر
بذلك الرسول — صلى الله عليه وسلم — .

وهذه الصفات هي التي تحمل المؤمن على أن يرشده أخاه إلى الخير ، وينهيه إلى ما يقع فيه من شر ، فالمؤمن مرآة أخيه ، وأن تكون عند المدعو إلى الطوبى القويم الساحة والتواضع ، والرغبة الأكيدة في التزام مناهج الدين ، تلك التي ترفع من نفسه الغضاظة حين يأمره أحد أو ينهاه .

وقد حدثنا القرآن الكريم في كثير من المواضع عن ضرورة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر لبقاء بناء الأمة الإسلامية سليما ، وأن الناس كلهم في خسار « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

كما أزرى القرآن على اليهود ، وأخبر أنهم لعنوا على السنة أنبيائهم ؛ لأنهم تغاضوا عن المسىء فلم يأخذوا على يده : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون »^(١) .

والإيمان بالله ورسوله ، والعمل الصالح هما الأساسان القويان اللذان قامت عليهما هذه الأمة ، وكانت بهما خير الأمم ، فبالإيمان بالله كانت الأمة الإسلامية أمة عزيزة ، لا تذلل لأحد ؛ لأنها لا ترى في الوجود أحداً (أكبر) ، وإنما الأكبر هو إلهها .

(١) سورة المائدة الآيتان : ٧٨ ، ٧٩

ولا أحد سواه ، وكان أفرادها هم الأعلون لأنه لا ينبغي أن يكون أحد أعلى ممن يعتصم بحبل الله .

تلك هي الأمة التي كان مولد محمد — صلى الله عليه وسلم — إلهاناً بمولدها ، وكان محمد بصفاته العالية ، وأخلاقه الرفيعة — القدوة لها ، والأسوة . وقد نشأت أمة كاملة منحت العالم في تاريخها الأول أفضل ما في البشرية من العدل والأخاء والمساواة ، وظلت كذلك حقاً طويلاً من التاريخ ، وإذا كان شيء من الضعف والوهن قد تسرب إليها فإن ذلك عارض لا بد أن يزول ، لأن بين يديها ما يعيد لها مجدها ، عندها تعاليم هذا الدين الذي ولدت يوم ولد ، وهي تعاليم لن تبلى ، وإن يخلق الزمن جدتها ، ولن يأتي الناس مهما سميت عبقرياتهم بتعاليم أفضل منها ، فلا بد أن يكون إليها المرجع في نهاية المطاف ، وستكون هذه الأمة هي القائمة بأمر الله ، وهي الهادية لتلك التوافل الضالة من أبناء البشرية الذين مزقهم الأهواء ، وتحكمت فيهم شهواتهم فأبعدتهم عن الطريق القاصد ، وحادت بهم عن الجادة ، ولن يجدوا المصباح الهادي ، والناصح الأمين إلا في تعاليم الإسلام ، كما لن يجدوا الأستاذ الموجه إلى الخير ، الموشد إلى الحق والعدل في غير الأمة الإسلامية .

وها نحن أولاء نرى من حولنا المذاهب المادية أخفقت كلها في إسعاد البشرية ، ولا نرى لها هدفاً إلا السيطرة على مقدرات الشعوب ، ولا غاية إلا أن يقضى كل واحد منها على الآخر ،

ومن هنا أمن أرباب هذه المذاهب في اختراع أسلحة الدمار ،
وما هي إلا طيشة من أحقق فإذا الأرض غير الأرض ، وإذا
الحضارة كلها في أعماق الجحيم .

فأين هذه المذاهب الضالة من التشريع الإسلامي الذي يحقق
لجميع العيش في أمن وسلام ، وأين هذه الأمم المتناحرة من الأمة
الإسلامية التي سادت في أزمنة متطاولة فما وجد الناس في ظلها
إلا الطمأنينة والأمن ، وما عكس عليها صفوها إلا الأحقاد والأطاع
التي سيطرت على بعض الأمم فدفعتها إلى أن تبسط سيطرتها بالقهر
والغلبة ، وأن تآكل الشعوب المستضعفة . لا تصدر في ذلك عن دين
صحيح ، ولا عن خلق قويم .

وستبقى البشرية زمناً — أعتقد أنه لن يطول — تنتظر بصبر فارغ ،
وشوق شديد من يأخذ بيدها إلى شاطئ الأمان ، ويجنبها ويلات
العابثين بها ، ثم تجد هذا المنقذ في تعاليم الإسلام ، وفي الوجوع
إلى الله تعالى ، وحينئذ ستنبذ كل هذه المذاهب الضالة ، وتتمسك
بجبل الله المتين ، وبشرعه القويم ، وستكون الأمة الإسلامية هي
المنار الهادي ، والشاطئ الأمين .

فى ذكرى المولد النبوى الشريف

جميل أن يحتفل المسلمون بأعيادهم ، وأن يذكروا أيامهم الخالدة فى تاريخهم ، وأن يعيدوا إلى الأذهان ما كان فى تلك الأيام من مآثر أفاد منها الإسلام ، وأثرت فى حياة البشرية ، وجميل أن يقف المسلمون فى إجلال وإعجاب ببطولات أسلافهم ، وحسن بلائهم فى نشر الدين الحنيف ، وتكوين الأمة الإسلامية .

ولعل من أجدر تلك الأيام بالإجلال والإكبار ، وأحقها بأن يحتفل به المسلمون ، وأن يطيلوا الوقوف عند ذكره هو ميلاد الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، فهو الشعاع الأول الذى أضاء الدنيا حين انتشر نوره ، وعم السهول والوديان ، والأغوار والأنجاد . وهو الذى كان إيداناً بميلاد أمة — كما أسلفت — أسست حضارة كانت أم الحضارات التى تلتها .

ومن أيام المسلمين الخالدة يوم هجرة الرسول من مكة إلى يثرب هذه الهجرة التى غيرت وجه التاريخ ، وكافت فاصلاً بين عهدين من عهود الأمة الإسلامية ، عهد المسالمة والترقب والقلّة ، وعهد المواجهة والمنعة والسلطان .

وكلا اليومين كان فى شهر ربيع الأول .

وحقاً - لقد قام المسلمون - في أكثر الدول الإسلامية - بواجب التكريم هذين اليومين ، يوم ذكرى ميلاد رسول الإسلام ، ويوم ذكرى هجرته ، من إظهار الأفراح ، وكثرة القول فيها ، والحديث عما خلفته من مآثر حسان .

وما زلت منذ عقلت أرى مدارسنا ومعاهدنا وأنديتنا ، وإذاعاتنا ومجلاتنا وصحفنا تهب يوم ذكرى أحد هذين اليومين ، فتشترع عنهما صحائف كريمة ، وتسمع الدنيا من ألسنها أقوى الأناشيد وأعذبها .

وكذلك رأيت عامتنا وخاصتنا في جميع بلادنا يقيمون الزينات وينصبون الرايات ، وفي يوم المولد يدقون الطبول ، وينصبون حلقات الذكر ، هل قرأت أن ذلك لم يكن في عهدنا الحاضر بل كان منذ أزمنة قديمة ، فقد قرأت خطبة لأحد خطباء المساجد في العصور القديمة يقول فيها : (وما جرت به العادة عند تلاوة مولده الشريف من إيقاد المصابيح والشموع ، وإقامة الزينات ، ورفع أعلام المسرات في الطرقات والربوع فلا بأس به .. ولا بأس - أيضاً - بضرب الدفوف التي أقي الشرع بإباحة ضربها ، والترنم بالأناشيد التي مدح بها ، فإن لكل أمة عيداً ، وعيد أمتنا ليلة مولد رسول ربها ، فاستعملوا لاحتفالكم بمولد نبيكم بقدر الاستطاعة ، ولا تقتلوا بأهل البدع ، واقتلوا بأهل السنة والجماعة)^(١) .

(١) السنن والمبتدعات ص ٩٤ محمد عبد السلام خضر .

ونريد - بكل رفق ولين - أن نقف مع إخواننا وسادتنا ممن يشاركون في هذه المظاهر ، ومن يرونها ويباركونها ، ومن يرونها ويسكتون عن بيان وجه الحق فيها .

ولعله مما يخجل ويؤسف له أن يكون هذا وشئ غير قليل من أمثاله هو كل نصيبنا من هذه الذكرى الكريمة ، ولعل لا أبعد إذا قلت أن هذا النهج في ذكرى نبينا الكريم ، منقذ الإنسانية ، ورافع أسس الحياة الصحيحة الكريمة غفلة من المسلمين تبعدهم كثيراً عن العمل الصحيح لإعادة مجد الإسلام ، والسير على تعاليمه العالية ، وماذا تجدى هذه المظاهر البسيطة الساذجة ، إذا كنا نهمل الروح الإسلامية ، ونرضى بالبنون ، ونقنع باليسير من حياة الجهد والمجد والعزة التي دعانا إليها الإسلام ، وأوجب أن نعمل جاهدين من أجلها ، ونبتغى في الدفاع عنها .

إن أول ما أخطأ فيه هذا الخطيب الذي نقلت فقرات من كلامه أن سمى يوم ذكرى ميلاد الرسول (عيداً) فليس لنا في الإسلام إلا عيدان : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومن الخطأ أن نسمى أى يوم آخر سواء كان لمناسبة إسلامية أو لغيرها ، أن نسميه عيداً . وثاني الأخطاء التي وقع فيها هذا الخطيب أنه ادعى أن الاحتفال بذكرى مولد الرسول على الصورة التي ذكرها هو مسلك أهل السنة والجماعة ، فإني لأجزم غير متحرج أن هذا الذي يفعله المسلمون من رفع الرايات ، ودق الطبول لا يقره أحد من أهل

السنة . وكيف يقرون شيئاً لم يشر لإياه الرسول ، ولم يفعله أحد من صحابته ولا من تابعيهم .

وثالث هذه الأخطاء ، أن هذه المظاهر التي دعا إليها ، وقال لا بأس بها لا تليق بهذه الذكرى الكريمة ، وماذا تجدى هذه المظاهر على الإسلام وعلى المسلمين ، لقد شغل الناس بها عن العمل القاصد في دينهم ، ولقد كان همنا ونحن صغار حين تجئ أيام المولد أن نذهب لنمتع بما يعرض في الساحات من الخلوى ، ونستمع بما نرى من الألاعيب التي كان يجيدها راكبو الخيول وغيرهم ، ولم يكن في أذهاننا أى معنى روى لهذا المولد سوى ما قد نسمعه من واعظ يلقي كلمة ، أو قارئ يتلو سورة ، لم تكن في ذلك السن المبكرة نفهم منهما شيئاً .

إن عمر هذه البدعة قد طال ، وأن الأيام لا تزيدنا إلا إمعاناً فيما يضر ولا ينفع ، ولا أتصور أحداً يجهل ما يحدث في هذه الاجتماعات من مفاسد ، فضلاً عن أنها ليست من الدين في شيء .

ولا أجدنى في حرج حين أقول أن تبعة إستشراء هذا الداء تقع على علمائنا ، فإن منهم من يباركها ، ومنهم من يشترك فيها ، ومنهم من يحبس لسانه عن قول كلمة الحق في شأنها .

لقد قلت مرة لأحد العلماء الكبار — وكان ذاهباً ليفتح مولداً لأحد المشايخ الذين تقام لهم الموالد — قالت له : إن ذهابك إلى

هناك يقر في أذهان العامة أن هذا عمل مشروع ، فلو أنك حين لم تستطع الإنكار بلسانك أمسكت عن الذهاب فكان هذا إنكاراً بقلبك لقد كنت أرضيت دينك بعض الرضا ، فقال إني أذهب إلى هناك لأخفف من المفاسد التي تعرفها ، والتي تحدث عادة في مثل هذه الموالد ، فقلت : مع أني أشك كثيراً في أن وجودك بين هؤلاء السادرين في غوايتهم يخفف شيئاً مما يرتكبونه فإن ذهابك وحده إقرار لهذه البدعة .

وقد يقال أن هذه عادات دأب عليها الناس ومن الصعب أن نحملهم على الإقلاع عنها ، وأقول أن كل شيء يجيء بالتدريج فلو أن صحفنا وإذاعاتنا ووعاظنا وخطباءنا واجهوا الناس — في رفق وفي لين — بما يرون أنه حق ، وبما هو في حقيقة الأمر حق من إنكار هذه البدع لاستجاب الناس إن عاجلاً وإن آجلاً لهذه الدعوات الخيرة .

أن أول ما ينبغي أن نبدأ به أن يقتصر احتفالنا بذكرى مولد نبينا عليه الصلاة والسلام على شرح محاسن الإسلام ، وعلى بيان فضائله — صلى الله عليه وسلم — وعلى تنقية الشريعة مما علق بها من خرافات .

أما تلك الموالد التي تقام لمشايخ الأضرحة فيجب منع الناس من إقامتها بالنصيحة أولاً ، ثم بقوة القانون ثانياً ، فما نعرف أن

صحابياً واحداً ، ولا تابعياً واحداً ، بل ولا عالماً يقتدى به في
العصور السالفة دعا إلى مثل هذا الذي لا أخرج أن أسميه (عبثاً)
وتشويهاً لوجه الإسلام .

وإذا كان لابد من تكريم رجل من هؤلاء الرجال فليكن بذكر
سيرته إن كنا نعرف شيئاً عن سيرته ، وإن كانت في ذاتها مما يستحق
الذكر ، وأقول ذلك لأن قومنا كثيراً ما يقيمون الموالد لمشايخ
لا يعرفون عنهم شيئاً إلا أسماءهم .

وقد عاشت بنفسى رجلاً من هؤلاء الرجال ، عاش حياته عرياناً
لا شيء عليه إلا ما يستر عورته ، ولم يكن يعنى شيئاً من أمور الدنيا
غير أن يأكل ويشرب ، فلما مات أقام له أولاده ضريحاً ، وبعد
سنوات أقاموا له مولداً ، وخذع كثير من العامة رجلاً ونساء فكانوا
— ولا يزالون — يقدمون لصدقة هذا الضريح النذور والهدايا ،
وسموه : (الشيخ العريان) .

إنى أتمنى أن أرى اليوم الذي نخفى فيه هذه الموالد جملة وتفصيلاً .

إن العالم الآن يشبه من وجوه كثيرة ، عالم الأمس قبل ميلاد
الرسول النبي الأُمى ، فالحيرة والقلق والخوف كلها تقض مضاجع
كبار الساسة في العالم ، والفساد والظلم والخرافات تسبب بكثير من
شعوب العالم ، والفضيلة والعدل والحق قد خفت صوتهما ، وهيض

جناحها ، والرذيلة والظلم والبغضاء والإحن هي سادة العالم اليوم ،
والمسيطرة عليه ، والمتحكمة في كل أفعاله وهيموله ، والدنيا — اليوم —
كما كانت بالأمس تنتظر من يخلصها من كل هذه المهلكات ،
فلا المنظمات الدولية ، ولا الحروب المدمرة ، ولا الأقوال المعسولة
لا شيء من ذلك يقر السلام في الأرض ، ويحل الخيبة محل البغضاء ،
والأخوة محل التنافر ، والعدل مكان الظلم .

وإنما هو شيء واحد ، لا تصالح الأرض إلا به ، ولا ينجو العالم
من المصير الخيف إلا إذا تمسك ببعاليه ، ذلك هو الدين .

وقد فطن فلاسفة العالم ، وأحرار الفكر لذلك .

ومن أبدع ما قيل في هذا الشأن ما قاله (روسو) الفيلسوف
الشهير : (شر الشرور في أعمالك أن يكون الله مجهولاً فيها ،
فإن في ذهاب الديانة تقويضاً لأركان الهيئة الاجتماعية) .

ويقول (فيكتور كيران) : (إن الشعوب لأشد احتياجاً إلى
المبادئ الدينية منها إلى الشرائع المدنية ، والعلوم السياسية) .

ولسنا — ودون تعصب — نجد أماناً دينياً لا يستطيع إصلاح
العالم ، وإقرار السلام بين شعوبه إلا الدين الإسلامي ، فهو دين
الحرية والعدل والمساواة ، ولم يكن في يوم من الأيام دين طقوس
ومظاهر ، وإنما كان العامل على إصلاح الدنيا وصالح الآخرة ،

والموجه إلى خير الشعوب ، وإنهاض الأمم من كبواتها ، وإقرار
الحبة بينها .

ولسنا نقول هذا لأننا مسلمون ، ولكن لأننا — مع ذلك — ندرك
إدراكاً سليماً واعياً مدى ما في تعاليم هذا الدين من إسعاد للبشرية
وخير للشعوب .

ومن الدليل على ذلك أننا لسنا وحدنا الذين نقول هذا القول
بل إن من مفكرى العالم من يقول مثلنا ، وليست شريعته شريعتنا ،
ولا دينه ديننا .

لقد نادى بذلك أحرار الفكر من الأوروبيين ، وأكدوا أنه
لا نجاة لأوروبا نفسها إلا بالاعتماد على تعاليم الإسلام .

ومن ذلك كلمات الكاتب الإنجليزي الفيلسوف ، الطائر الصيت
(برنارد شو) حيث يقول : (كنت في كل الأحيان — ولازلت —
أتناول دين محمد فأقدره تقديراً عظيماً ، وذلك لروحيته العجيبة ،
وحيويته العظيمة . إنه الدين الوحيد الذى يملك القدرة على هداية
الغير ، وملائمة الأزمنة ، فهو حرى أن يكون دين الجميع في كل
دور وطور ، ويجب على العالم — دون شك — أن يقدر ، ويعلق
أهمية عظمى على ذلك) .

(لقد تنبأت عن دين محمد أنه سيكون مقبولا ، وملائماً لأوروبا
في الوقت الحاضر ، إن قساوسة القرون الوسطى ، إما لجهلهم المطبق

وإما لتعصّبهم الأعمى قد رسموا الدين الإسلامي بألوان سوداء مظلمة ، وكانوا في الحقيقة قد طبعوا على كره محمد ، ومقت دينه الخفيف ، لأن محمداً كان يظهر لهم أنه ضد المسيحية . أما أنا فقد درست الدين الإسلامي ، وشخصية محمد ، تلك الشخصية العظيمة اللامعة فوجدت محمداً بعيداً عما يلحقونه به من التهم ، ويجب — في الحقيقة — أن يسمى مخلص الإنسانية ومنقذها .

(إنى أعتقد أن رجلاً مثله لو أخذ على نفسه قيادة شعوب العالم الحاضرة ، وكان حاكماً مطلقاً لتمكن أن يقود العالم أحسن القيادة ، وتمكن من تسيير العالم نحو طريق السعادة ، وتمشيته نحو شاطئ العدل والسلام) .

(إن أوروبا الآن بدأت تحس بحكمة محمد ، وأنها بادئة في عشق دينه وفلسفته ، كما أنها ستبرئ العقيدة الإسلامية عما اتهمت به من أراجيف رجال أوروبا في القرون الوسطى . سيكون دين محمد النظام الذى يؤسس عليه العالم دعائم السلام ، والسعادة ، ويستند إلى فلسفته في حل المعضلات ، وفك المشاكل والعقد) .

(إن كثيرين من مواطني ، ومن الأوروبيين الآخرين يقدسون تعاليم محمد ، ولذلك يمكننى أنؤكد نبوءتى ، فأقول : إن بوادر العصر الإسلامى الأوروبى قريبة لا محالة) .

هذه كلها حقائق لا يرتاب فيها منصف ، وإذا فعلى المسلمين

بعمامة ، وعلى العلماء بخاصة أن يضعوا المناهج السليمة لأن يسود هذا الدين ، ويعمم ، فيسود السلام ويعمم .

وأول ذلك ، وأوجهه علينا أن ننقي هذا الدين من كل ما شاب تعاليمه من خرافات وأباطيل ، حتى يبدو للناس — كل الناس — صافياً نقياً ، كما جاء به محمد — صلى الله عليه وسلم — .

وعندى أن هذه الموالد — بصورتها التي نشاهدها عليها — أياً كانت مناسباتها تشوه جمال الإسلام ، وإنى لأتصور عالماً أوروبياً جاء إلى مصر ، ورأى هذه المشاهد في مولد النبي ، أو مولد آخر ، فرأى الزينات ، وتماثيل الخوى ، والرقص ، والطبول . لا أشك أنه سيرتاب في تعاليم الإسلام — ومن الختم أن يرتاب في سلوك المسلمين .

لا ينبغي أبداً ، بل من العار أن تكون هذه المظاهر هي التكريم لأيماننا الخالدة ، وكما قلت ، فمع أن إقامة هذه الموالد ، وبخاصة إقامتها لمشايخ الأضرحة بعيدة عن روح الإسلام أرى أن النهج الذي يتبعه بعض المسلمين في إحيائها ، والاحتفاء بها نهج فارغ من كل المعاني السامية .

وأمر آخر لو كنا نريد تكريم هذه الأيام الكريمة أن نحشد طاقاتنا في كل مناسبة من هذه المناسبات لإظهار محاسن الإسلام ، والدعوة إلى التحلى بفضائله ، وإقامة شرائعه ، وأن نحمل أنفسنا

ومن نستطيع على أن يكونوا القلوب الصالحة ، والأسوة الحسنة
لغيرهم من مسلمين وغير مسلمين ، فهذا ما يجب الآخرين في
الإسلام ، وما يدعوهم - على الأقل - إلى النظر في تعاملهم .

ولو أن هؤلاء الذين ينفقون الأموال الطائلة في إقامة الموالد - وقد
شهدت في بعض المدن استمرار المولد النبوى شهراً كاملاً - أقول
لو أن هؤلاء اجتمعوا في ليلة المولد الشريف وجمعوا هذه الأموال
وأقاموا بها عملاً خيراً : مستشفى أو مدرسة ، أو جمعية للحفاظ
القرآن الكريم لكان هذا أجدى وأنفع ، وأكثر جلباً للقلوب ، وجذباً
لها إلى حب هذه الذكرى ، والإشادة بها .

أما الموالد التي تقام لأصحاب الأضرحة فإني لأرفع يدي الضراعة
إلى الله تعالى أن يلهم القائمين بها وعليها ، أن يلهمهم أن يكفوا عن
هذا العبث الذي لن يفيد أحداً في دينه ، لا يفيد صاحب الضريح ،
ولا يفيد المتمسحين به ، بل من المؤكد أن ضرره في الدين لاحق
بهم ، وسيجدون في صحائفهم يوم القيامة ما يندمون عليه .

شهر ربيع الأول

لشهر ربيع الأول مكانة رفيعة في نفوس المسلمين ، فما يكاد هلاله يطالعهم حتى تخفق له قلوبهم ، وتشرح له صدورهم ، ويتأهبوا لعمل الخيرات .

ذلك أن لهم في هذا الشهر ذكريات عزيزة على نفوسهم ، أثيرة عندهم ، محبوبة لديهم .

وقد كان هذا الشهر في الجاهلية شهر الخير والبركات ، فإن العرب كانوا يرجعون فيه من غاراتهم بالفنائم والخيرات ، فسموه ربيعاً ، والربيع الخصب .

وفي الجاهلية الأولى كانت لهذه الشهور أسماء غير هذه الأسماء التي نعرفها . فربيع الأول — مثلاً — كان يسمى عند بعض القبائل (طليقاً) ، وعند بعضها الآخر (وبصان) ، ثم وضعت لهذه الشهور الأسماء التي نستعملها ، ويقال : أن أول من سماها بهذه الأسماء (كلاب بن مرة) الجد الخامس للنبي — صلى الله عليه وسلم —

ولما جاء الإسلام كان لشهر ربيع الأول شرف وقدر حتى أرخ المسلمون الأولون به حيناً من الدهر ، فقد كان العرب يؤرخون

بعام الفيل ، ثم أرخوا بموت هشام بن المغيرة ، ثم أرخ المسلمون بسنة قدوم النبي إلى المدينة ، وجعلوا مبدأ التاريخ الشهر الذي قدم فيه ، وهو ربيع الأول حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فأقر التاريخ بالهجرة النبوية ، ولكنه جعل مبدأ التاريخ شهر المحرم .

وقد اغتر بعض الكاتبين بصنيع عمر هذا فرأى أن هجرة الرسول كانت في أول المحرم .

نشرت الكاتبة الفاضلة بنت الشاطئ في عدد الأهرام الصادر في ١٩٦٥/٤/٣٠ م مقالا بعنوان : (بدء التاريخ) ذهبت فيه إلى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدأ هجرته من مكة إلى المدينة في اليوم الأول من شهر المحرم على رأس السنة الثالثة عشرة من مبعثه ، وفي ذلك تقول : (وتوابعوا - تريد فتیان قریش - على اللقاء سرّاً لا غتيال - تريد رسول الله - في ليلة بعينها من ليالى الخاق قبل أن يهل هلال المحرم) وتقول : (وحرس الله نبيه فعميت أبصارهم حين خرج من بيته في تلك الليلة ، وهم يتأهبون لقتله متعوذاً منه بآيات ربه) .

وتقول في مقدمة المقال : (بعد غد يتم عام القمر دورته ، ويزغ هلال المحرم مجدداً ذكرى اليوم الآخر الذى انفرد بشرف اختياره بداية للتقويم الإسلامى دون غيره من الأيام ، ذلك يوم

هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من مكة إلى يثرب) .
والواضح من كل ذلك أن الكتابة الفاضلة ترى أن قريشاً ائتمروا
بقتل رسول الله ، وعزموا على تنفيذ ذلك في ليلة الثامن والعشرين
من شهر ذى الحجة ، وأن النبي خرج من داره في تلك الليلة قاصداً
غار (ثور) ، وبعد أن مكث فيه ثلاثة أيام خرج مهاجراً إلى
المدينة في أول المحرم ، وأن المسلمين اتخذوا هذا اليوم بدءاً للتقويم
الهجرى لأنه اليوم الذى هاجر فيه الرسول .

ولم تذكر الكتابة دليلاً واحداً من كتب التاريخ أو السيرة
على رأيها هذا ، مع أن المعروف عند عامة المؤرخين ، وكتاب السيرة
النبوية أن هجرة الرسول كانت في أواخر شهر صفر وأوائل
ربيع الأول ، ويمكننا إستناداً إلى ما كتبه أصحاب السير والمحققون
من قدامى ومحدثين أن تحدد أيام الهجرة .

خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - من مكة مساء الخميس السابع
والعشرين من شهر صفر ، ومكث في غار ثور ثلاثة أيام : الجمعة
والسبت والأحد ، وفي يوم الاثنين الموافق أول ربيع الأول خرج
من الغار متوجهاً إلى المدينة ، ومكث في الطريق ثمانية أيام ، فوصل
(قباء) في الثامن من ربيع الأول ، ومكث فيها ثلاثة أيام ، وفي
يوم الخميس بنى مسجد قباء ثم توجه إلى المدينة فنزل عند بنى
سليم ، وصلى الجمعة هناك ، ثم دخل يثرب في عصر ذلك اليوم
نفسه .

فمن اعتبر وصول النبي إلى قباء بدء وصوله المدينة اعتبر الهجرة تمت في الثامن من شهر ربيع الأول ، وهو يوافق اليوم العشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢ م ، والعاشر من شهر (تشرى) عند اليهود سنة ٤٣٨٣ للخليفة ، ومن اعتبر دخول المدينة نفسها اعتد تمام الهجرة في الثالث عشر من ربيع الأول .

وقد حقق محمود باشا الفلكي في رسالة له ، أسماها (نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام) أن دخول النبي — صلى الله عليه وسلم — المدينة كان في يوم الاثنين ثامن ربيع الأول الموافق العشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢ م .

وفي الطبري وغيره من كتب التاريخ أن سيدنا عمر استشار أصحابه في السنة السادسة عشرة ، أو السابعة عشرة من الهجرة في التقويم ، فذكروا له أياماً عظماً ، فارتضى منها هجرة الرسول ، ثم اختلفوا في الشهر الذي يبدأون به التاريخ ، فأى عمر أن يكون (المحرم) ، وعال ذلك بأنه (منصرف الناس من الحج) وأنه (شهر حرام) وأنه (أول شهور السنة) ، ومعنى هذا التعليل أن أول المحرم لم يكن بدء هجرة الرسول ، ولو كان الأمر كذلك لما وقع خلاف بين الصحابة ، ولما احتاجوا في اختيار المحرم إلى تعليل آخر .

ولو أنهم قالوا إن المحرم كان بدء هجرة المسلمين إلى (يثرب) لأن بيعة العقبة الأخيرة كانت في موسم الحج ، وبعدها بدأ المسلمون

يهاجرون إلى المدينة أرسالا أرسالا حتى لم يبق في مكة إلا عدد قليل ، منهم الرسول وأبو بكر ، وأو أنهم قالوا ان النبي بدأ من ذلك التاريخ يفكر في الهجرة لكان ذلك تعليلا مقبولا ، ولكنهم لم يقولوا إلا تعليقات بعيدة عن الاعراف بأن محرماً كان بدء هجرة الرسول .

ولعل الشبهة جاءت للكاتبه الفاضلة ، ولآخرين غيرها مما رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس —رضى الله عنهما— من أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فسأوا عن ذلك ، فقالوا هذا اليوم الذى أظهر الله فيه موسى ، وبني إسرائيل على فرعون ، فنحن نصومه تعظيما له ، فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — : نحن أولى بموسى منكم ، فأمر بصومه .

وفي رواية أخرى لمسلم : فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء . ولما كان الحقون من المؤرخين ، وكتاب السيرة رأوا في هذا الحديث تعارضاً مع المشهور من تاريخ الهجرة النبوية ، فقد أخذوا يفسرون هذا الحديث ، ومن ذلك ما قاله (ابن قيم الجوزية) في كتابه (زاد الميعاد) : (أما الإشكال الأول ، وهو أنه لما قدم المدينة وجدهم يصومون يوم عاشوراء فليس فيه أنه يوم قدومه وجدهم يصومونه ، فإنه إنما قدم يوم الاثنين في ربيع الأول ، ولكن أول علمه بذلك بوقوع القصة في اليوم الثامن الذى كان بعد قدومه

المدينة ، ولم يكن وهو بمكة ، هذا إن كان حساب أهل الكتاب في صومه بالأشهر الهلالية ، وإن كان بالشمسية زال الإشكال بالكلية ، ويكون اليوم الذى نجي الله فيه موسى هو يوم عاشوراء من أول الحرم ، فضبطه أهل الكتاب بالشهور الشمسية ، فوافق ذلك مقدم النبي في ربيع الأول ، وصوم أهل الكتاب إنما هو بحساب الشمس وصوم المسلمين إنما هو بالشهر الهلالي .

ويؤيد ما ذهب إليه ابن قيم الجوزية أن في روايات الأحاديث ما يدل على أن النبي إنما علم بصوم اليهود أول دخوله المدينة . روى عن ابن عباس - والرواية في صحيح مسلم - أنه قال حين صام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم عاشوراء ، وأمر بصيامه قالوا يارسول الله ، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى ، فقال الرسول : فإذا كان العام المقبل صمنا اليوم التاسع ، قال : فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله .

ويفهم من هذا الحديث أن النبي لم يعلم بتعظيم اليهود ليوم عاشوراء إلا قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى بعام .

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن اليهود من العرب كانوا يسمون - أيضاً - بعاشوراء اليوم العاشر من شهر (تشرى) ، وهو أول شهور سنتهم ، وأن هذا اليوم اتفق أنه في زمن مقدم النبي المدينة كان يوم الثامن من ربيع الأول ، ويقل هذا الباحث عن

(البيروني) من كتاب (الآثار) قوله : وقد قيل أن عاشوراء
عبراني معرب ، وهو العاشر من (تشرى) اليهودي ، الذي صومه
صوم الكبور ، وأنه اعتبر في شهور العرب فجعل في اليوم العاشر
من أول شهورهم ، كما هو اليوم العاشر من أول شهور اليهود .

هذا . والمشهور أن أول من أرخ بالتاريخ الهجري هو سيدنا
عمر بن الخطاب ، وقد ذهب بعض علماء الأزهري ، وهو المرحوم
الشيخ فكري ياسين أن أول من أرخ بالتاريخ الهجري هو النبي
— صلى الله عليه وسلم — وقد استند في ذلك إلى ما رواه الشيخ
حمزة فتح الله في كتاب (التحفة السنية في التواريخ العربية) من
قوله : (وقفت على ما يعضد الأول إذ رأيت بخط ابن القماح
في مجموع له ، قال ابن الصلاح : وقفت على كتاب في الشروط
للأستاذ الزيايدي ذكر فيه أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران أمر عالياً أن يكتب
فيه أنه كتب لخمس من الهجرة ، فالمرخ بالهجرة إذن رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — ، وعمو تبعه في ذلك) .

ثم نعود إلى شهر ربيع الأول ، فنقول :

في هذا الشهر المبارك ظهرت أحداث عظيمة ، أهمها حادثان
جليلان : ميلاد النبي — صلى الله عليه وسلم — ، وهجرته إلى
المدينة المنورة ، والمشهور عند العلماء أنه — صلى الله عليه وسلم —

ولد عند طلوع الفجر من يوم الاثنين اثنى عشر من ربيع الأول ، ولكن بعض المحققين يؤكد - استناداً إلى بعض الروايات - أنه - عليه الصلاة والسلام - ولد يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول ، وفي ذلك يقول محمود باشا الفلكي في كتابه (تقويم العرب قبل الإسلام) : (ولا يسعني إلا الجزم بأن ولادته - صلى الله عليه وسلم - كانت في فصل الربيع من سنة ٥٧١ مسيحية ، ثم يحقق تحقيقاً فلكياً آخر ، ينتهي منه بهذا القول : (ويتلخص من هذا أن سيدنا محمداً - صلى الله عليه وسلم - ولد في يوم الاثنين ٩ ربيع الأول ، ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ مسيحية . فاحرص على هذا التحقيق ، ولا تكن أسير التقليد) .

ولم تتبعنا شهر ربيع الأول في تاريخ المسلمين لرأينا فيه أحداثاً خطيرة كثيرة نكتفي منها بثلاثة أحداث - غير ميلاد الرسول وهجرته - نرى أن بينها جميعاً تشابهاً عجيباً ، وإنما نعتمد في ذلك على الراجع عند المؤرخين .

اختلف المسلمون عند وفاة الرسول فيمن يتولى الخلافة بعده ، واجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليؤمروا واحداً منهم ، فجاء إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فقال الأنصار للمهاجرين : منا أمير ، ومنكم أمير ، وقام منهم رجل فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فحن الأنصار ، وكتيبة الإسلام ، وأنتم معشر قريش رهط بيننا ، وقد دفت إلينا دافة من قومكم فإذا هم

يريدون أن يغضبونا هذا الأمر . فقام أبو بكر ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : (أيها الناس . نحن المهاجرون ، أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً وأكثر الناس ولادة في العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار - والذين اتبعوهم بإحسان » فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، أخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفئ ، وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، لاتدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحكم الله من فضله) .

فارتفعت الأصوات ، وكثر اللغط ، وأوشكت أن تكون فتنة فقال عمر لأبي بكر : ابسط يدك أبايعك ، فبايعه عمر ، وبايعه الناس ، وجنب الله المسلمين الاختلاف .

وكان ذلك في اليوم الثانى عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة .

ونعم الناس في ظل الخلفاء الراشدين ، وتمتعوا بالعدل والحرية والمساواة على أتم وجوها ، حتى كانت الفتنة التى ذهب ضحيتها الخليفة الصالح ذو النورين عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ، فانشقت

عصا المسلمين ، وانقسموا فرقتين كبيرتين ، أحدهما تؤيد على ابن أبي طالب كرم الله وجهه ، والأخرى تؤيد معاوية بن أبي سفيان — رحمه الله — ، واستحكيم الخلاف حتى اقتتلوا ، وأريق دماء زكية عزيزة ، وانتهى الأمر بقتل على ، ومبايعة أصحابه لابنه الحسن — رضى الله عنه — وتأهب هؤلاء للقتال مرة أخرى ، وأوشكت تعود الحرب بين المسلمين ، ولكن الحسن آثر السلامة ، وفضل حقن الدماء ، وذهب إلى معاوية وتنازل له عن الخلافة ، وخطب خطبة بليغة ، فقال : (أما بعد ، يا أيها الناس فإن الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دول ، وأن الله تعالى قال لنبيه — صلى الله عليه وسلم — : وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) .

وسلم الحسن الكوفة لمعاوية ، ودخلها هذا لخمس بقين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من الهجرة ، ويسمى المؤرخون هذا العام (عام الجماعة الأولى) لاجتماع كلمة المسلمين فيه لأول مرة بعد مقتل عثمان .

وحكمت دولة بنى أمية زهاء مائة سنة ، لقي الناس فيها الخير والشر ، وشربوا الخلو والمر ، إلى أن تأذن الله بانقراضها ، وقيام دولة بنى العباس على أنقاضها ، وهى أول مرة تكون الخلافة فى بنى هاشم بإجماع المسلمين ، ويباع أول خليفة من هذه الدولة

التي استمرت أكثر من خمسة قرون ، وهو أبو العباس السفاح ،
 يبايع في ربيع الأول سنة ١٣٢ من الهجرة ، ويصعد منبر الكوفة
 فيخطب خطبة جامعة يذكر فيها فضل أهل البيت ، وثناء الله عليهم ،
 وإيجاب حقهم ومودتهم على الناس ، ثم يقول : (وزعت الشامية
 الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والخلافة ، فشاهت وجوههم .
 لم أيها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم . وبصرهم بعد
 جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ، وأدحض
 الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة ،
 وتمم بنا النقيصة ، وجمع الفرق ، حتى عاد الناس بعد العداوة
 أهل التعاطف والبر والمواساة في دنياهم وإخواناً على سرر متقابلين في
 آخرتهم فتح الله ذلك منة ومنحة محمد صلى الله عليه وسلم) .

[وبعد] :

أليس من المصادفات الغريبة أن تكون كل هذه الأمور في شهر
 ربيع الأول ، وبينها هذا التشابه العجيب ؟

ميلاد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أعظم ما حدث في تاريخ
 البشرية ، كان إيداناً بتطور خطير في تاريخ العالم .

وهجرته إلى المدينة كانت تطوراً آخر في تاريخ الإسلام ، بل هي
 الحادث الأعظم في تاريخه — بعد مولد الرسول ، وبعثته — بها بدأ
 نفوذ الإسلام يقوى ، وشوكة تشعه ، ودعوته تعم الآفاق .

ثم كانت خلافة أبي بكر بدءاً لعصر الخلفاء الراشدين . هذا العصر الذى فتحت فيه الممالك . فتحت مصر والشام وفارس ، وثبتت قواعد الإسلام ، وانتشر في بقاع كثيرة ، وتكاد تجمع كلمة المؤرخين على أن هذه الأحداث الثلاثة كانت في شهر ربيع الأول . ثم جاءت دولة بنى أمية فحافظت على رقعة الدولة الإسلامية ، لم تضع منها شبراً واحداً ، بل دخل المسلمون في عهدها أوروبا ، وحكموا بلاد الأندلس بعد فتحها في عهد هذه الدولة ، وظل حكمهم فيها ثمانية قرون .

ثم جاءت دولة بنى العباس فكان عهدا العصر الذهبى للغة والدين والعلم والحضارة الإسلامية ، فيها ظهور نوابغ العلماء والكتاب والشعراء ، ووضعت أكثر العلوم الإسلامية ، وترجمت العلوم الأجنبية .

ثم . أليس من المصادفات العجيبة أن يكون مولد النبي صلى الله عليه وسلم - في يوم الاثنين ، ومبعثه في يوم الاثنين ، وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم - كما ذكر الطبرى في تاريخه . ثم يكون وصول النبي إلى (قباء) الذى يعتبره الخفقهون من المؤرخين مبدأ لدخوله المدينة ، يكون ذلك في يوم الاثنين ، ثم تكون خلافة أبي بكر ، وبدء عهد الخلفاء الراشدين في يوم الاثنين أيضاً؟؟!!

ولكن لله تدبيراً تقصر عن إدراكه العقول وتعجز عن الوصول إلى حقيقته الأفهام .

الاشهر الحرم في كتاب الله تعالى

كان مما حافظ عليه العرب من شريعة إبراهيم — عليه السلام —
تعظيم أربعة أشهر في السنة القمرية ، وهي ذو القعدة وذو الحجة
والحرم ورجب ، ثلاثة سرد ، وواحد فرد .

كانوا يمتنعون فيها عن الغارات والثارات ، والقتال بجميع أنواعه
وكان احترامهم لها عظيما ، حتى كان الرجل منهم يلقى قاتل أبيه
أو أخيه — ويتمكن منه — فلا يعرض له ، تعظيما لحرمة الشهر الحرام .

وإنما حافظوا على حرمتها لحاجتهم الشديدة إلى الأمن في أشهر
الحج ، حيث يقصدون مكة لأداء المناسك ، وللتجارة ، ثم ينصرفون
إلى مساكنهم في وسط الجزيرة وأطرافها ، ثم عظم عابهم — بعد زمن
طويل — أن يستمروا ثلاثة أشهر دون إغارة أو قتال ، في حين كانت
حياتهم تعتمد على الصيد وعلى الغارات ، فظهر فيهم رجال ذوو
مكانة ورياسة استجابوا لرغبات بعضهم في التحلل من هذه الشريعة
على وجه من الوجوه .

رفعوا الحرمه عن بعض الشهور ، وحرموا مكانه شهراً آخر ، فكان الرئيس منهم يقف في الجموع وينادى بأنه أحل (المحرم) وحرم (صفراً) مكانه ، وبذلك تكون المخالفة في خصوص الشهور لا في أعدادها ، وهذا ما كانوا يسمونه (النسي) ، وكان مفخراً من مفاخرهم ، يقول شاعرهم :

ألسنا الناسئين على معدد شهور الحل نجعلها حراما
ويقول آخر :

وكنا الناسئين على معدد شهورهم الحرام إلى الخليل
فلما جاء الإسلام أبقي على هذه الشعيرة من شريعة إبراهيم ، ودعا إلى المحافظة عليها ، وأنكر عليهم النسي ، بل شدد في النكير حتى اعتبره زيادة في الكفر .

وقد ورد ذكر الأشهر الحرم في ثلاث سور من سور القرآن الكريم : البقرة ، والمائدة ، والتوبة ، وجاء ذكرها في موضعين من كل سورة من هذه السور .

وسورة البقرة نزلت في الطريق بين مكة والمدينة أيام الهجرة ، ثم نزلت سورة المائدة ، ثم نزلت سورة (براءة) في السنة التاسعة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وسنمضي مع الآيات الكريمة بحسب ترتيبها في المصحف ، ونبين

ما اقترن بكل آية حتى نقف على صورة واضحة تمثل لنا نظرة الإسلام مكتملة نحو هذه الأشهر الحرم .

وأول هذه الآيات في الترتيب المصحفي قول الله تعالى : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » .

ذكر العلماء أنها نزلت في عمرة القضاء ، بعد عام (الحديبية) في ذى القعدة سنة سبع من الهجرة ، وذلك أن النبي — صلى الله عليه وسلم — ذهب إلى (مكة) يريد العمرة سنة ست فصدّه كفار قريش ، فرجع بعد أن وعده الله سبحانه أنه سيدخل البيت ، فلما دخل مكة واعتمر — كما وعده الله — نزلت هذه الآية .

وقد كان المشركون في سنة ست قاتلوا المسلمين رميا بالسهام والحجارة ، فانتهكوا حرمة (ذى القعدة) عام (الحديبية) ، وكان الكفار يعظمونه منذ الجاهلية الأولى — كما مر آنفاً ، أما النبي — صلى الله عليه وسلم — فقد كف عن مجاورتهم بالمثل لئلا يحدث القتال بين الفريقين ، ثم خرج المسلمون في العام بعده ، وكرهوا قتال المشركين تعظيماً للشهر الحرام ، فأُنزل الله — عز وجل — هذه الآية ، توشدهم أنه لا جناح عليهم في أن يقاتلوا في هذا الشهر ، إذ يكون جزاء أن قوتلوا في مثله من العام الفائت ، فمن انتهك حرمة الشهر كان معتدياً ، وليس على من يرد الاعتداء بمثله أى جناح ، ولذلك جاء قوله تعالى :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » تأكيداً لما تضمنته قوله سبحانه : « الشهر الحرام بالشهر الحرام » .

وأما قوله سبحانه : « والحرمات قصاص » فهو كالقاعدة العامة التي نهجها الإسلام للمسلمين ، والقصاص المساواة ، ووجه اتصالها بأول الآية أن الله سبحانه اقتصر للمسلمين من المشركين إذ صدوهم سنة ست ، فقتلوا عمرتهم سنة سبع .

وفي عموم هذه القاعدة خلاف بين الفقهاء ؛ إذ يرى بعضهم أن ما تضمنته كان معمولاً به في أول الإسلام : أن من انتهك حرمة شخص نال منه مثل ما انتهك من حرمة ، ثم نسخ هذا الحكم .

وقال الشافعي — وهو رواية في مذهب مالك — أنه يجوز لمن تعدى عليه في مال أو جرح أن يتعدى بمثل ما تعدى به عليه إذا أخفى ذلك ، وليس بينه وبين الله شيء .

وقالت طائفة من أصحاب مالك : ليس له ذلك ، وأمور القصاص وقف على الأحكام ، والأموال يتناولها قول النبي — صلى الله عليه وسلم — : (أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك) .

فمن ائتمنه شخص فخانه لا يجوز له أن يخونه ، ويصل إلى حقه مما ائتمنه عليه ، وهذا هو المشهور من مذهب مالك ، وبه قال أبو حنيفة تمسكاً بهذا الحديث .

أورد ذلك كله (القرطبي) في تفسيره ، ثم قال : قلت :
والصحيح جواز ذلك كيفما توصل إلى أخذ حقه ما لم يعد سارقاً ،
وأن ذلك ليس بخيانة ، وإنما هو وصول إلى حق .

وقد يبدو في توقيت نزول هذه الآية بعض الأشكال ، ذلك أن
سورة (البقرة) نزلت — كما هو المشهور — في الطريق بين مكة
والمدينة ، فهي أول السور المدنية نزولاً ، وهذه الآية — إذا صح
ما قيل في سبب نزولها — نزلت سنة سبع من الهجرة .

وجواب هذا الاشكال أن سورة البقرة لم تنزل مرة واحدة ، وإنما
نزلت في أزمنة شتى ، نزلت جمهرتها أيام الهجرة الأولى ، ونزل
باقيا بعد ذلك في آماد مختلفة ، وبؤيد هذا ما قيل من أن قوله تعالى :
« واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » ، وهو مروي عن ابن عباس —
رضي الله عنهما — ، والآية من أواخر سرورة البقرة ، ما قيل أنه كان
بين نزولها ووفاة النبي — صلى الله عليه وسلم — تسع ليال .

ويأتى بعد هذه الآية في الترتيب المصحفي قوله تعالى : « يسألونك
عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله
وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر
من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا
ومن يردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم
في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

والمشهور عند المفسرين أن سبب نزول هذه الآية قصة عبد الله ابن جحش مع عمرو بن عبد الله بن عباد الحضرمي .

وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعث ثمانية رجال من المهاجرين وأمر عليهم عبد الله بن جحش ، وكتب له كتاباً ، وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، ونهاه أن يستكره أحداً من أصحابه على المسير معه بعد أن ينظر في الكتاب ، فلما فُض الكتاب وجد فيه : (إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم) فلما قرأه قال : سمعاً وطاعة ، ثم أخبر أصحابه بما في الكتاب ، وبأنه لا يستكره أحداً منهم ، وأنه منفذ أمر رسول الله ، ولو لم يسر معه أحد ، وقال لهم : من أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، فقالوا : كلنا نرغب فيما نرغب فيه ، وما منا أحد إلا وهو سامع مطيع لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما ساروا معه مرت بهم غير لقريش ، فيها عمرو بن الحضرمي ، فتشاور المسلمون ، وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب ، الشهر الحرام ، فإن نحن قاتلناهم هتكنا حرمة الشهر الحرام ، وإن توكلناهم الليالة دخلوا الحرم ، ثم اتفقوا على لقاءهم ، فرى أحدهم ابن الحضرمي ، فقتله .

وقيل أن عبد الله وأصحابه لم يعرفوا أن اليوم الذي قاتلوا فيه كان من رجب ، إذ خرجوا في أخريات جمادى الآخرة ، فظنوه من جمادى ، وهذا هو المروى عن ابن عباس .

وأيا ما كان فقد اتهم المسلمون أصحاب محمد بأنهم يهتكون حرمة الشهر الحرام ، والنبي — صلى الله عليه وسلم — نفسه أنكروا على أصحابه ما فعلوه فسقط في أيديهم ، فأزول الله سبحانه هذه الآية .

والمعنى : يسألك يا محمد المسلمون أو المشركون عن القتال في الشهر الحرام ، فأجبههم بأن القتال فيه جرم عظيم ، وإثم كبير ، ولكن ما يفعله المشركون من الصمد عن سبيل الله ، وعن المسجد الحرام ، وإخراج أهله منه ، ومن الكفر بالله أعظم عند الله إثماً من القتال في الشهر الحرام .

وقد اختلف العلماء — أيضاً — في نسخ هذه الآية ، فقال بعضهم : أن قول الله تعالى : « قل قتال فيه كبير » منسوخ بقوله سبحانه « وقاتلوا المشركين كافة »^(١) وبقوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذلوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد »^(٢) ، وكلتا الآيتين تسمى (آية السيف) . والنسخ هو مذهب جمهور العلماء ، فهم يرون أن قتال المشركين في الأشهر الحرم مباح ، وإن اختلفوا في الناسخ .

وقالت طائفة : أن القتال في الشهر الحرام مستنكر ما لم يعتد الكفار على المسلمين ، فيكون قتال المسلمين — حينئذ — دفعاً لا ابتداء قتال .

(١) سورة التوبة من الآية : ٣٦

(٢) سورة التوبة من الآية : ٥

وقد روى أبو الزبير عن جابر ، قال : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لا يقاتل في الشهر الحرام إلا أن يغزى .

وإذا صح ما قيل في سبب نزول هذه الآية ، والآية السابقة كان ذلك موضع تساؤل .

ذلك أن آية : « الشهر الحرام بالشهر الحرام » نزلت في سنة سبع من الهجرة ، وهذه الآية : « يسألونك عن الشهر الحرام » نزلت بسبب قصة عبد الله بن جحش ، وقد بعثه الرسول إلى مكة قبل بدر بشهرين ، وقد قيل في ذلك : أن عبد الله بن جحش أول أمير في الإسلام ، بل قيل له : (أمير المؤمنين) ، وابن الحضرمي أول قتييل في الإسلام ، وما غنمه المسلمون — في هذه الواقعة — أول غنيمة في الإسلام .

ووجه التساؤل أنه بحسب أسباب النزول تكون الآية المتأخرة في النزول سابقة في الترتيب المصحفي .

ذلك واقع إذا صح سبباً النزول في كل من الآيتين ، ومن المعروف أن بعض الآيات كان ينزل متفرقاً ، ويؤمر النبي — صلى الله عليه وسلم — بأن يضع آية كذا في موضع كذا ، وقد توضع الآية في موضع تكون الآيات التي بعدها قد سبقتها في النزول .

وقد جاءت في سورة المائدة — كما أسلفت — آيتان فيهما ذكر الشهر الحرام ، ومن المشهور أن المائدة نزلت قبل براءة ، وقيل أن

المائدة آخر سورة نزلت من القرآن ، والمعروف - أيضاً - أن سورة (براءة) نزلت سنة تسع ، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - أرسل بها (علياً) ليقراها على الناس في موسم الحج ، وكان الذي يحج بالناس في ذلك العام سيدنا أبو بكر ، ولكن مما روى - أيضاً - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ سورة المائدة في خطبته في حجة الوداع ، وقال : (يأيها الناس إن آخر القرآن نزولا سورة المائدة ، فأحلوها ، وحرموا حرامها) .

ومن عجيب ما يروى من ذلك أن سورة (براءة) نزلت بعد سورة (البقرة) بسنتين ، ذلك أن المشهور عند العلماء أن (البقرة) أول سورة نزلت بالمدينة ، وأن (براءة) نزلت سنة تسع ، إلا أن يكون المواد أن جمهرة سورة البقرة نزلت أولا ، ثم تم نزولها في وقت متأخر ، ولعل ذلك كان في السنة السابعة من الهجرة .

جاء في الآية الثانية من سورة المائدة قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً» .

وجاء في أواخرها قول الله تعالى : «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم» .

وكان الآية الثانية تعليل لما في الآية الأولى ، على بعد ما بينهما .
 فالله سبحانه جعل البيت الحرام ، والشهر الحرام قياماً للناس ، أى
 جعل مكاناً وزماناً يأمن فيهما الناس على أنفسهم ، وعلى أموالهم ،
 وعلى أداء مناسكهم ، كما جعل الهدى والقلائد من أسباب الأمن
 لهم ، فهذا تتحقق مصالح دنياهم ، وشعائر دينهم .

روى ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن زيد ، قال : كان الناس
 فيهم ملوك تدفع بعضهم عن بعض ، ولم يكن في العرب ملوك
 يدفع بعضهم عن بعض فجعل الله لهم البيت الحرام قياماً يدفع بعضهم
 عن بعض به ، والشهر الحرام كذلك يدفع الله بعضهم عن بعض
 بالأشهر الحرم ، والقلائد ، ويلقى الرجل قاتل أبيه وابن عمه فلا
 يعرض له .

وهكذا كانت عاداتهم في الجاهلية ، لو جنى الرجل كل جناية ،
 ثم لجأ إلى الحرم أمن على نفسه وماله ، وكان الرجل لو لقي الهدى
 مقلداً لم يعرض له ، ولم يقربه مهما بلغ منه الجوع ، وكان الرجل
 إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر فتمنعه من الناس ، وإذا عاد منه
 تقلد قلادة من بعض نبات الحرم فتحمله من الناس حتى يأتي أهله .

وهذه صور كانت لهم في الجاهلية مبنية على أصل ، وهو حرمة
 البيت الحرام ، وحرمة الشهر الحرام ، وحرمة الهدى والقلائد ،
 ولا يزال الأصل في الإسلام ثابتاً .

والمراد بالشهر الحرام — هنا — قيل : ذو الحجة ، وقيل : جنس الشهر الحرام .

ولما كانت هذه الأشياء قياماً للناس في أمور دينهم ودنياهم نهى الله سبحانه وتعالى عن إحلالها .

وذلك — كما يقول ابن عباس — أن تصيد وأنت محرم ، وأن تقاتل في الشهر الحرام .

وقيل المراد بإحلال الشهر الحرام النسيء الذي كان يفعله بعض السادة العرب في الجاهلية .

والظاهر ما عاينه جمهور العلماء من نسخ هذه الآية ؛ لإجماع العلماء على أن الله عز وجل قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم ، وغيرها ، وكذلك أجمعوا على أن المشرك أو قلد عنقه وذراعيه جميع لحاء شجر الحرم لم يكن ذلك أماناً له من القتل ، إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة أو أمان .

وكذلك أجمعوا على منع من قصد البيت بحج أو عمرة من المشركين لقوله تعالى : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا »^(١) .

والثابت أن المسلمين نهوا أن يتعرضوا لمن يقصد بيت الله من

(١) سورة التوبة من الآية : ٢٨

المسلمين في الشهر الحرام ، أو في غيره ، وإنما خص الشهر الحرام
لزيادة فضل له عن بقية الأشهر ، والله سبحانه أن يفضل من الأمكنة
والأزمنة على غيرها ما يشاء .

وفي سورة التوبة ورد ذكر الأشهر الحرم في موضعين :

الأول : في قوله تعالى : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا
المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل
مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله
غفور رحيم » .

لما أعلن القرآن الكريم براءة الله ورسوله من المشركين ، وحث
المؤمنين على أن يتموا عهد ذى العهد إلى مدتهم ، إذا لم ينقصوهم
شيثاً ، ولم يظاهروا عليهم أحداً ، وأمن من لم يكن له عهد أربعة
أشهر لا يعرض لهم المؤمنون — أذن للمسلمين أن يقتلوا المشركين
حيث وجدوهم إذا انسلخت الأشهر الحرم .

وقد اختلف العلماء في المراد بالأشهر الحرم في هذه الآية ، فقال
بعضهم : أنها الأربعة الأشهر الواردة في الآية السابقة ، وهى قوله
تعالى : « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » ، وسميت حرماً لأن الله
حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين ، أى . فإذا انقضت مدة الأمان
فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا
لهم كل مرصد .

وقال آخرون : هي الأشهر الحرم المعروفة ، ومن قال منهم أن هذه الآية نزلت ليلة النحر قال أن المدة المشار إليها هي خمسون يوماً ، فإذا انتهى الحرم جاز للمسلمين أن يفعلوا بالمشركون ما ذكرته الآية الكريمة ، والمراد بالقيود لهم كل مرصد القعود لهم في مواضع الغرة لاغتيالهم ، أو لمعرفة أخبارهم ، وأحوالهم ، وغدوهم ورواحهم.

الثاني : في قوله تعالى : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطأوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين » .

وفي هاتين الآيتين خلاصة كل ما قيل وما عرف عن الأشهر الحرم ، وهما وإن كانتا من آخر القرآن نزولاً كانتا معروفتي المعنى عند المسلمين من بدء الدعوة الإسلامية ، فالعرب كانوا يعظمون هذه الأشهر ، وكان كثير منهم ينكرون النسيء ، وقد أقرهم الإسلام على كلا الأمرين .

أما بيان الأشهر بأعيانها فقد ورد في الحديث الشريف الذي خطب به المسلمون في حجة الوداع : (أيها الناس . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً ،

منها أربعة حرم : ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والحرم ،
ورجب مضر ، الذى بين جمادى وشعبان) .

قال الألويسى فى كتابه : (بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب) :
زعم يوسف بن عبد الملك فى كتابه (تفضيل الأزمنة) أن هذه المقالة
صدرت من النبى - صلى الله عليه وسلم - فى شهر مارس ، وهو
آذار ، وهو برمهات بالقبطية ، وفيه يستوى الليل والنهار عند حلول
الشمس برج الحمل ، والمراد بالزمان السنة .

ومعنى كهيته ، أى استدار مثل حالته الأولى ، والمراد باستدارته
وقوع تاسع ذى الحجة فى الوقت الذى حلت فيه الشمس برج الحمل
حيث يستوى الليل والنهار .

وأضاف - صلى الله عليه وسلم - (رجب) إلى (مضر) لأنهم
كانوا متمسكين بتعظيمه ، بخلاف غيرهم ، فيقال : أن ربيعة كانوا
يجعلون بدله (رمضان) .

وذكر (القرطبي) فى تفسيره أن (علماء التعديل قد اختبروا
ذلك فوجدوا الشمس فى برج الحوت وقت قوله عليه السلام :
(أن الزمان قد استدار كهيته) بينها وبين الحمل عشرون درجة ،
ومنهم من قال : عشر درجات . والله أعلم) .

والمشهور أن المراد باستدارة الزمان هو رجوع الحج إلى تاسع
ذى الحجة ، وكان ذلك قد تغير بنسب الشهور ، وذو الحجة هو

شهره الأصلي ، ويقال أن سيدنا أبا بكر حج في السنة التاسعة من هجرة في ذى القعدة ، فلما حج النبي - صلى الله عليه وسلم - وافق يوم عرفة التاسع من ذى الحجة ، وقد أصبح ذلك ديناً وشرعاً .

والمراد بكتاب الله في قوله تعالى : « في كتاب الله » اللوح المحفوظ ، أو حكمه التشريعي .

وقال الزمخشري : فيما أثبتته وأوجبه من حكمه ، وراه حكمة وصواباً .

« ذلك الدين القيم » أى أن تحريم الأشهر الحرم الأربعة هو الدين المستقيم . دين إبراهيم وإسماعيل .

وقيل : أى الحساب الصحيح ، والعدد المستوفى . وعن ابن عباس : أى ذلك القضاء .

قال القرطبي : والأصوب عندي أن يكون الدين ها هنا على أشهر وجوهه ، أى ذلك الشرع والطاعة .

والضمير في « فيهن » راجع إلى جميع الشهور ، وقيل إلى الأشهر الحرم ، وعلى الأول فالأمر ظاهر ، أما على الثاني فإن تحريم الظلم في الأشهر الحرم مع أنه محرم في كل وقت من باب تعظيم الظلم فيها . وقال بعض العلماء : أن الأنفس بطبعها مجبولة على الظلم والفساد ، والامتناع عنه على الإطلاق شاق على النفس . لا جرم أن الله خص

بعض الأوقات بمزيد التعظيم والاحترام ليمتنع الإنسان في تلك الأوقات من فعل الظلم والقبائح والمنكرات ، وربما تركها في باقي الأوقات ، فتصير هذه الأوقات الشريفة ، والأشهر الحرمه المعظمة سبباً لترك الظلم ، وفعل المعاصي في غيرها من الأشهر ، فهذا وجه الحكمة في تخصيص بعض الأشهر دون بعض بمزيد التشريف والتعظيم ، وكذلك الأمكنة أيضاً .

ومعنى ظلم النفس فيها القتال ، وهو منسوخ بإباحة القتال في جميع الشهور ، أو ارتكاب المعاصي فيها . ومن هنا رأى بعض العلماء أن العقاب يضاعف على الذنب في الشهر الحرام ، كما يضاعف الثواب على العمل الصالح فيه .

ورأى الإمام الأوزاعي أن القتل في الشهر الحرام تغلظ فيه الدية ، كما تغلظ على القتل في الحرم ، فتجعل دية وثلاثاً ، وهو مذهب الشافعي أيضاً : أن تغلظ الدية في البلد الحرام ، وفي الشهر الحرام ، وفي قتل ذوى الرحم .

وخالف في ذلك الإمام أبو حنيفة ، والإمام مالك ، وأصحابهما ، فاعتبروا القتل في الحرم ، وفي الحل سواء ، وفي الشهر الحرام ، وفي غيره سواء .

وفي الآية الثانية من هاتين الآيتين وصف « النفسى » بأنه « زيادة في الكفر » وبأنه « يضل به الدين كفروا » وأن الذين فعلوه من العرب انتهكوا شعائر الله ، فهم يحلون ما حرم الله ، وقد كانوا

يفعلونه على وجه يخیلون به أنهم باقون على شریعة الله ، فإذا أحلوا شهراً حرموا مكانه شهراً آخر ، وبذلك تبقى الأشهر الحرم أربعة ، فهي موافقة في العدد لما حرم الله ، وإن اختلفت في النوات ، وهذا معنى قوله سبحانه : « لیواطئوا عدة ما حرم الله » .

وقد كانوا یؤخرون تحريم الحرم إلى صفر ، فيستحاون المحرم ، ويحرمون صفرأ ، فإذا احتاجوا إلى تأخیر تحريم صفر أخروه إلى ربیع الأول . وهكذا یؤخرون شهراً بعد شهر حتى يستدير التحريم على السنة كلها .

وقد اختلفوا في أول من نسا الشهور ، فروى أنه رجل من بنی كنانة ، يقال له : (نعيم بن ثعلبة) ، وروى أنه رجل من بنی كنانة — أيضاً — يقال له : (القلمس) ، قال الشاعر :

ومنا ناسی الشهر القلمس

وروى أن أول من نسا عمرو بن لحي .

وكان الناسی يقوم خطیباً إذا هم الناس بالإنصراف من الحج ، ويقول : لا مرد لما قضيت ، أنا الذي لا أعاب ، ولا أحاب (أى لا أنسب إلى حوب ، وهو الذنب) ، ثم يقول : أن صفر العام حرام ، أو يقول : إن آهتكم قد أحلت لكم الحرم فأحلوه ، ثم يقوم في العام القابل ، فيقول : أن آهتكم حرمت عليكم الحرم فحرموه .

وقد شدد القرآن الكريم النكير على النساء ، فوصف فعلهم بأنه (زيادة في الكفر) ، وختمت الآية بوعيد شديد أيضاً : « والله لا يهدي القوم الكافرين » . فهم كافرون ، والله لا يهدي إلى شريعته وحكمه إلا المؤمنين ، فهم المستحقون للهداية التي توصلهم إلى سعادة الدنيا والآخرة .

ومن عجب ، ومن المصادفات الغريبة ، أني حين كنت أراجع هذا البحث ظهر في التليفزيون المصرى عالم ، له هامة وقامة ، يحدث الناس في أمور دينهم ، ويشرح لهم بعض آيات القرآن ، وكان مما عرض له الأشهر الحرم ، فقال أنها شوال وذو القعدة وذو الحجة والحرم فعجبت كيف يذهب عن مثله معرفة الأشهر الحرم ، وبخاصة أنه كان يفسر آية فيما ذكر الشهر الحرام فكان أدنى ما ينبغي له أن يعرف أن (شوالا) ليس من الأشهر الحرم .

عام الحزن في حياة الرسول

تسع سنوات قاسيات قضاهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مكة منذ بعث ، كانت كلها مثقلة بالآلام والمتاعب ، فقد لقي فيها من عناد قومه ، ومن إصرارهم على محاربة الذي جاء به ، ومن صلفهم وكبريائهم وإيذائهم له ، ولأصحابه - وبخاصة المستضعفين منهم - لقي من كل ذلك ما تعيا بحمله الجبال الرواسي .

كان الرسول شديد الحرص على أن يؤمن هؤلاء السادة من العرب ، وعلى أن يتقبل الدعوة الجديدة الراشدة أقرب الناس إليه من عمومته وبني عمومته ، وقد أهمه ذلك الأمرهما شديداً ، وصفه القرآن الكريم بأبلغ وصف ، حيث يقول : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »^(١) . « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين »^(٢) .

وهاجر بعض أصحابه من مكة أحب بلاد الله إليهم طلباً للأمان في بلاد بعيدة ، فشق ذلك عليه ، ولكنه ظل ينتظر وعد الله له بالنصر والظفر .

(١) سورة الكهف الآية : ٦

(٢) سورة الشراء الآية ٣ .

وأجمعت قريش أمرها على أن يقاطعوا بني هاشم وبني المطلب
فحصروهم في الشعب ثلاث سنين ، لا يكلمونهم ، ولا يبيعونهم ،
ولا يبتاعون منهم شيئاً ، فصبر النبي وصابر ، واليقين يملأ قلبه
بأن الله — سبحانه — سيجعل له ولعشيرته ، من هذا الأمر مخرجاً ،
وسيجعل بعد عسر يسراً ، وقد جاءهم اليسر ، ونقض جماعة
من سادة قريش صحيفة المقاطعة^(١)

كل ذلك احتمله الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأن ضاقت
نفسه الكريمة الآية بكثير منه .

فلما كانت السنة العاشرة من مبعثه فاجأته حادثتان ضاقت بهما
أشد الضيق ، وحزن من وقعهما الأليم أشد الحزن وأبلغه .

في شوال ، وعلى التحديد في النصف من شوال في السنة العاشرة
من حين نبي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — توفي أبو طالب ،
وهو يومئذ ابن بضع وثمانين سنة ، وبعد موته بقليل ، بشهر
 وخمسة أيام توفيت سيدة النساء زوجته خديجة بنت خويلد — رضي
الله عنها — فاجتمع كما يقول ابن سعد في الطبقات الكبرى^(٢) —

(١) م خمسة نفر : هشام بن عمرو بن الحارث ، وزهير بن أمية بن المنيرة
والمطم بن عدى ، وأبو البختري ابن هشام ، وزمعة بن الأسود . وكان هشام
بن عمرو أحسنهم في ذلك غناء ، لأنه الذي أقنع الآخرين بنقض الصحيفة ، أما الذي
شقها فهو المطم بن عدى .

(٢) (٢) ج ١ ص ١٠٦ .

على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مصيبتان : موت خديجة بنت خويلد ، وموت أبي طالب عمه .

وقد سمي رسول الله هذا العام (عام الحزن) .

كان أبو طالب النصير الأكبر للنبي بعد موت جده عبد المطلب وقد كانت كفالة أبي طالب له - صلى الله عليه وسلم - من أجل النعم التي امتن بها الله عليه ، جاء ذلك في قوله تعالى : « ألم يجدك يتيماً فآوى » ، وأبوؤه أنه حين مات أبوه ، وهو صغير ، ولم يترك مالا ولا مأوى قيض له قلباً رحيماً هو قلب جده عبد المطلب ، فلما مات عبد المطلب ضمه الله إلى عمه أبي طالب فكفله ، وأحسن تربيته ، وكفاه المئونة .

وكان أبو طالب - مع تمسكه بدين آبائه - حفيماً بالرسول ، وبدعوته ، يدفع عنه أذى قريش ، ويخصه دون أبنائه - أحياناً - بالمودة والبر ، ويغمره دائماً بالعطف والحب ، وقد كانت قريش تعرف لأبي طالب مكانته ، وتوقره وتجله ، وتهاب أن تتال من النبي خشية من غضبه لابن أخيه .

ولم يقف أبو طالب عند الدفاع عن محمد - صلى الله عليه وسلم - بل كان يدافع - أيضاً - عن أسلم من ضعفاء قومه .

ولما أرسلت قريش إلى (النجاشي) تطلب إليه أن يرفع حمايته عن هاجر إلى الحبشة من المسلمين ، ولم يستجب النجاشي لطلب

قريش كتب إليه أبو طالب يشكره ، ويمدحه ، ويحضه على العدل والإحسان إلى من نزل عنده من قومه .

بل وصل بر أبي طالب بمحمد ودعوته إلى أن دعا بني عبدالمطلب وحثهم على التمسك بتعاليم الرسول ، وقال لهم : لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد ، وما اتبعتم أمره ، فاتبعوه ، وأعينوه ترشدوا . فلما مات أبو طالب اجتزأت قريش على الرسول ، ونالت منه ما لم تكن تناله ، أو تقدر عليه .

وقد روى أن سفيها من سفهاء قريش ألقى على الرسول التراب بعد موت أبي طالب ، فرجع الرسول إلى بيته ، فأنت إحدى بناته ، ومسحت عن وجهه التراب ، فجعل الرسول يقول لها : (أى بنية لا تبكين ، فإن الله مانع أباك) ، ويقول فيما بين ذلك : (ما نالت قريش منى شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب ، ثم شرعوا) .

أما (خديجة) فقد كانت بما لها وجاهها الرذء المكين للرسول منذ تزوجها قبل أن يبعث بخمسة عشر عاماً ، فلما جاءه الوحي وجد منها العضد القوي ، والنصير المخلص الأمين ، والمواسي المعين في أحلك المواقف .

روى الشعبي عن مسروق عن عائشة ، قالت : كان النبي — صلى الله عليه وسلم — إذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء .

قالت : فغرت يوماً ، فقلت ، ما أكثر ما تذكرها ، حمراء الشدين ، قد أبدلك الله خيراً منها ، فقال : (ما أبدلني الله خيراً منها ، وقد آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وآسنى بماها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء)^(١) .

وقال — صلى الله عليه وسلم — : (كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) .

قال العلماء : والقدر المشترك بين الثلاث النسوة أن كلا منهن كفلت نبياً مرسلًا ، وأحسنّت صحبته في كفالتها ، وصدقته .

فآسية ربت موسى ، وصدقته ، وأحسنّت إليه ، ومريم كفلت ولدها أتم كفالة ، وأعظمها ، وصدقته حين أرسل ، وخديجة رغبّت في الزواج من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وبذلت في ذلك أموالها ، وصدقته حين نزل عليه الوحي من الله عز وجل

لا تغرو أن يحزن الرسول أشد الحزن على ناصريه المدافعين

(١) ابن كثير . البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٨ - ١٢٩ طبة السادة

• رواه مسلم .

عنه ، ويلزم بيته ، ويقل الخروج منه ، ويسمى العام الذى توفيا فيه عام الحزن .

والحزن على وفاة عزيز ، بل الهكاء على فراقه لا يتعارض مع الإيمان ، بل والإيمان الراسخ الوثيق .

وقد ورد فى الحديث الصحيح : أن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا على فراقك يا إبراهيم نحزونون .

قال هذا — صلى الله عليه وسلم — حين بكى على موت ابنه إبراهيم فرأى من بعض الصحابة لوناً من ألوان التمتع من بكائه .

والرسول بشر قبل كل شئ . فلا بد أن يطوف بنفسه ما يطوف بنفوس البشر مما لا يتعارض مع الإيمان ، وربما كان حزنه على عمه وزوجه من قبيل الوفاء ، وهو خليف بأن ينى أكمل الوفاء وأجمله لمن أحسنوا صحبته ، وأيدوا دعوته .

وربما كان حزنه مظهراً لرقه قلبه ، ونيل عواطفه ، وقد كان — صلى الله عليه وسلم — أرق الناس قلباً .

روى أنه لما مر (بالأبواء) فى عمرة الحديبية ، وكانت أمه مدفونة هناك قال : (إن الله أذن لىحمد فى زيارة قبر أمه) فأتاه فأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه ، فقيل له فى ذلك ،

فقال : (أدركني رحمتها فبكيت)^(١) .

ولم يشك رسول الله لحظة واحدة في أن الله سبحانه ناصره وماعه ، ودافع عنه ، ولكنه - صلى الله عليه وسلم - كان يدرك تمام الإدراك أن الأمور موهونة بأسبابها ، وأنه فقد ب وفاة أبي طالب وخديجة ركنين من أقوى الأركان التي يستند إليها ، وهو عصى في تبليغ دعوته .

وقد اتهم الرسول بعد فقد هذين النصيرين النصرة ، ولكنه لم يجد بعدهما من البشر نصيراً .

لما بلغ (أبا هب) ما يعانيه ابن أخيه جاءه ، وقال له : يا محمد . امض لما أردت ، وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه . لا . واللات لا يوصل إليك حتى أموت .

وأثلت قريش في أول الأمر على صنيع أبي هب ، وهابوه ، ولكن جماعة من شياطينهم احتالوا على أبي هب حتى أوغروا صدره . على الرسول ، فنع عنه حمايته ، وقال له : والله . لا برحت لك . علواً أبداً ، . . واشتد عليه هو وسائر قريش .

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٩٨ وقد رواه مسلم بصيغة أخرى . (استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي) وكذلك رواه ابن حنبل وأبو داود والنسائي وابن ماجه .

وكان طبيعيا - بعد ذلك ، وقد ضاقت به مكة - أن يلتمس
النصرة في غيرها ، فكانت رحلته - صلى الله عليه وسلم - إلى
(الطائف) آملا أن يجد في أهله من يعينه على المضى في دعوته ،
فأقام هناك عشرة أيام ، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه ،
ولكن الله لم يشرح صدر أحد منهم للإسلام ، وخافوا على أبنائهم
أن يستجيبوا لدعوته فطأبوا إليه أن يخرج من بلدهم ، وأغروا به
سفهاءهم ، فلقى منهم الرسول أذى شديداً ، فرجع إلى مكة ،
وهو محزون ، بل أشد الحزن ، لأنه حزن على حزن :

ولقد يطاق لهم غير مضاعف فإذا تضاعف كان غير مطاق
وفي مقامه بالطائف ، وبعد أن يئس من استجابة أهلها له دعا
بديعائه البليغ العميق ، المشهور :

(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على
الناس . يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي .
إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ؟
إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ،
أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر
الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل علي سخطك .
لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك)^(١)

(١) أورده ابن إسحق ، ورواه الطبراني في كتاب الدعاء .

وأشد ما يظالنا به هذا الدعاء هو الحالة النفسية التي كان يعاني منها الرسول في تلك اللحظات ، فليس أقسى على النفس الكريمة من أن تشعر (بهوانها على الناس) وأنها من (المستضعفين) ، ولكن الثقة في الله غالبية ، فليس ما يحزننا أشد الحزن ، هوانها ولا استضعافها وإنما هو الخوف أن يكون بالله غضب عليها وهو — صلى الله عليه وسلم — على يقين أن الله غير غاضب عليه ، فهو لا يبالي بما يلقاه من الناس مهما اشتدت قسوتهم ، وبلغ عتوهم وجبروتهم .

وكان ما لقيه رسول الله من ثقيف أشد مما لقيه فيما بعد يوم أحد ، فلا غرو أن يقيم الرسول لذلك ، وقد ضاقت به الطائف ، كما ضاقت به مكة .

أيام وشهور بالغة السوء والقسوة عاشها الرسول — صلى الله عليه وسلم — منذ توفي عمه أبو طالب وزوجه خديجة ، ولكن رحمة الله وعافيته أوسع له — كما قال في دعائه .

وكأنما أرادت السماء أن تختم هذه الحوازب بتدبير تعود به الدعوة إلى جدتها ، وكأنما أرادت أن تجلد البرهان على صدق هذه الدعوة ، وأن تشرح صدر الرسول ، وتؤكد له أنها ما تخلت عنه ، فكانت معجزة الاسراء والمعراج .

من كذب على ..

من الأحاديث المشهورة قول النبي — صلى الله عليه وسلم —
من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار .

وقد اتفق على روايته البخارى ومسلم ، وقال النووى فى شرحه
لصحيح مسلم : إنه حديث عظيم ، فى نهاية الصحة ، وقد روى
عن أكثر من ستين صحابياً ، منهم العشرة المشهود لهم بالجنة ، ولم
يجتمع لحديث آخر ما اجتمع لهذا الحديث من روايته عن أكثر
من ستين صحابياً ، ومن اجتماع العشرة المبشرين بالجنة على روايته .

وذكر عن بعض المحدثين أن مائتين من الصحابة رووه ، وفى
كتب الحديث أحاديث أخرى فى معناه .

وفى هذه الأحاديث وعيد شديد لمن نسب إلى رسول الله ما لم
يثبت أنه قاله ، ولا يقتصر الوعيد على الواضع الأول للحديث ،
بل يشمل — أيضاً — من يروى الحديث وهو يعلم أنه غير صحيح .

وفى هذا جاء الحديث الذى رواه مسلم عن رواته ، عن سمرة
— رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين :

ومن هنا قال النووي : يحرم رواية الحديث الموضوع على من عرف كونه موضوعا أو غلب على ظنه وضعه ، فمن روى حديثا علم أو ظن وضعه ولم يبين حال روايته وضعفه فهو داخل في هذا الرعيد ، مندرج في جملة الكاذبين على رسول الله — صلى الله عليه وسلم^(١) —

وأكثر ما يستعان بهذه الأحاديث ، الموضوعة أو الضعيفة في الترغيب والترهيب ، ومن الكلام المشهور : الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال . وهذا كلام ينبئ ألا يصح ، فيكفي أن يحكم بأن الحديث ضعيف حتى يطرح ، ولا يعمل به .

وقد أجمع المسلمون الذين يعتمد بهم في الاجماع على أن وضع الحديث على رسول الله سواء كان في الأحكام أو في الترغيب والترهيب حرام من أكبر الكبائر ، وأقبح القبائح ، ولم يشذ عن ذلك إلا الكرامية ، وهم فرقة مبتدعة ، فقد زعموا باطلا أنه يجوز وضع الحديث في الترغيب والترهيب ، وتابعهم على ذلك كثيرون من الجهلة الذين يذنبون أنفسهم إلى الزهد ، أو ينسبهم جهلة مثلهم^(٢) .

إن الأحاديث الصحيحة في الحث على فضائل الأعمال ، وفي

(١) شرح صحيح مسلم ج ١ ص ٧١ .

(٢) ذكر ذلك كله النووي في هذا الموضع .

التنفير من رذائلها كثيرة فلا حاجة بالواعظ أو الخطيب أو المؤلف إلى الاستعانة بالأحاديث الضعيفة .

وخطر رواية هذه الأحاديث الضعيفة من وجهين ، فمن جهة يثبت في أذهان العامة وأشباه العامة أموراً ليست في شريعتنا ، وهذا شر مستطير ، ومن جهة أخرى ربما حمل هذا الصنيع بعض الناس على السخرية مما يقرأ أو يسمع .

وقد ذكر مسلم في صحيحه أن إياس بن معاوية قال لسفيان بن حسين : احفظ على ما أقول لك . إياك والشناعة في الحديث فإنه قلما حملها أحد إلا ذل في نفسه ، وكذب في حديثه .

ويؤيد ذلك الحديث الصحيح الذي رواه مسلم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع .

ومن العجيب أن السبيل ممهدة أمام من يخاطب الجماهير بأحاديث رسول الله ، فلا يتكلف شططاً ، ولا يجد أى عنت حين يرغب أن يستوثق من صحة حديث ، فالكتب المؤلفة في الأحاديث الموضوعة كثيرة ، وقرية تناول ، وكذلك الكتب التى عنت بتخريج أحاديث وردت في كتب أخرى .

فتتلا : الحافظ العراقي خرج أحاديث (إحياء علوم الدين) للغزالي ، وهذا الكتاب مع ما فيه من علم غزير ، ومن مادة وفيرة

في الوعظ والإرشاد ، وهو معتمده كثيرين ممن يسلكون هذه السبيل ، مع ذلك - وبكل أسف - أورد أحاديث كثيرة بين موضوعة وضعيفة ، ولا ينبغي أبدا أن يهمل الذي يطالعها ما كتبه الحافظ العراقي في تخريج الأحاديث التي ملأت كتاب الأحياء .

ومن الذين عنوا بتخريج الأحاديث التي وردت في بعض الكتب العلامة الحافظ بن حجر ، فمن فضائله أنه خرج الأحاديث التي وردت في تفسير الكشاف للزمخشري ، والذي يطالع كتاب ابن حجر يعجب كيف فات كل ذلك على هذا العالم الكبير جار الله ، ويتأكد عنده أن من الخطأ الاعتماد على رواية عالم - ولو كان الزمخشري - لم يعرف بأنه من رجال الحديث .

وللسيوطي كتاب (مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا) ، وله الجامع الكبير والجامع الصغير ، وفيهما الكفاية ، وفوق الكفاية في معرفة درجة الأحاديث من الصحة .

ولقد يروع المؤمن أن يظل دهرًا طويلا يسمع حديثاً ، بلغ من الشهرة كل مبلغ ثم يقين له بأخرة أنه حديث غير صحيح .

ولقد كنت أعجب من هذا الحديث ، وأقول في نفسي كيف يصح هذا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى رأيت العلماء الباحثين يحكمون عليه بالوضع .

أما الحديث فهو : جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : أن امرأتى لا تدفع يد لأمس . قال : طلقها . قال : إني أحبها . قال : استمتع بها .

وأما العلماء الذين حكموا عليه بالوضع ، فمنهم الإمام ابن الجوزي ، فقد قال : لا أصل لهذا الحديث ، وذكره في الموضوعات وكذلك طالما سمعت وقرأت أحاديث وردت في فضائل سور القرآن ، بل ذكرتها أكثر التفسير ثم تبين لي - كما ذكر العلماء - أن أكثر هذه الأحاديث غير صحيح .

ومن الأحاديث المشهورة ، وهو غير صحيح ما نسب للنبي من قوله : (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان) .

قال أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نصر - رحمهما الله تعالى - أنه غير ثابت^(١) .

قال ابن حنبل : لا يصح ، ولا يثبت إسناده ، وذكر النووي أنه غير صحيح^(٢) .

ومن هذه الأحاديث ، الحديث المشهور : (الصلاة عمود الدين) ذكر النووي أنه حديث منكر ، ورواه البيهقي بسند ضعيف ، وقال العراقي ، أنه ضعيف .

(١) طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٢٣

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٢

والحديث القدسي المشهور : (يا عبادى مرضت فلم تعدنى ، وجهت فلم تطعننى ، وعطشت فلم تسقنى) .

قال السيد رشيد رضا فى تفسيره (المنار) عند تفسيره لقوله تعالى : « وما جعلنا القبله التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » .

قال السيد رشيد بعد أن ذكر أن معنى (إلا لنعلم) إلا ليعلم عبادى المؤمنون بإعلاى إياهم ، قال : وعلى هذا الأسلوب جاء ما روى فى الحديث القدسي ، (وذكر الحديث) خروجه على أن المراد مرض عبادى الفقراء الذين هم عيال الله فلم تعدهم .. إلخ نعم إن الرواية غير صحيحة ، ولكن لم يفهم أحد منها أنها على ظاهرها ، لقطع العقل بأن هذا محال ^(١) .

ومن ذلك حديث : (نية المرء خير من عمله) ، وقد كنت وقفت كثيراً عند معنى هذا الحديث ، حتى رأيته فى كتاب الإحياء للغزالي ، ورأيت ما أطال به فى شرح هذا الحديث ومحاويلته بطرق مختلفة أن يجد له وجهاً صحيحاً ، ثم نظرت فى هامشه لأجد الحافظ العراقى يقول : (أخرجه الطبرانى من حديث سهل بن سعد ، ومن حديث النواصب بن سميان ، وكلاهما ضعيف) .

ولم يقع مني شرح الغزالي مؤلفاً مقبولاً ، ولكن قبات بكل ارتياح
كلام الحافظ العراقي .

وقد يقول قائل : إن معاني بعض الأحاديث الموضوعة أو
الضعيفة صحيحة . فما الضير من روايتها ؟

ونقول له : إن مجرد نسبة قول إلى الرسول لم يقله خطأ ،
وخطر ، وكذب .

وإن حب المسلم لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ورغبته
الصادقة في أن يهتدى بهديه ، ويسير على سفته ، وخشيته من الله تعالى
كل ذلك منعه أن يفتري الكذب على رسول الله أو أن يفسب إليه
ما يعلم يقيناً أنه لم يقله .

وواجب العلماء والدعاة أن يكونوا على بينة من دينهم في كل
ما يعالج القضايا الإسلامية وفي كل ما يلقي على الناس من مواظ
وتوجيهات . .

والله يهدينا جميعاً سواء السبيل .

حياة الرسول في محبته كعب بن مالك

نحن الآن في السنة التاسعة من الهجرة ، أو على وجه التحديد في شهر رمضان من تلك السنة ، وقد رجع النبي — صلى الله عليه وسلم — في ثلاثين ألفاً من أصحابه إلى المدينة المنورة بعد غيبة استغرقت خمسين يوماً منذ توجه عليه السلام إلى (تبوك) ليغزو الروم في بلاد الشام ، وكان ذلك في أواخر (رجب) إلى أن عاد ظافراً في أوائل رمضان . وهامى ذى مدينة الرسول تموج بالبشر والفرح ، ولا يزال اللشيد الذي استقبل به المسلمون خارج المدينة ، والذي هزج به النساء والصبيان والولائد ، لا يزال هذا اللشيد يملأ الأسماع :

طلع البدر علينا من ثيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع

وقد كان يوماً عصيباً شاقاً ذلك اليوم الذي بدأ فيه النبي يتجهز لغزوة تبوك ، فقد كان المسلمون في جهد شديد ، وبلاء عظيم . كانوا في عسرة من الزاد حتى تزودوا الثمر المدود والشعير المسوس ، وبلغت بهم الشدة إلى أن اقتسم الثمرة اثنان ، وكانوا في عسرة من الماء حتى نحروا الإبل ، واعتصروا فروتها ليشربوا ما بها من ماء ، وفي عسرة

من المركب حتى كان العشرة يتعقبون بعيراً واحداً ، وكانوا في شدة زمان من الحر الشديد ، والجذب والقحط ، ولذلك سمي الله سبحانه هذه اللحظة في حياة المسلمين (ساعة العسرة) ، وأعلن أن بعض القلوب المؤمنة ، الصادقة الإيمان كادت تزيع فتميل إلى التخلف عن الجهاد ، ولكن الله ربط عليها ، وثبتها فاتبعت الرسول فرضى عنها ، قال تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم » (١) .

ولكن فتي جلدأ ، قريأ أيدأ . في نعمة ويسر ، شهد له الرسول بأنه يحسن صفة الحرب ، وبأنه دافع عن أعراض المسلمين فأحسن الدفاع وقد أسلمت بعض القبائل من بيتين قاهما ، فقد روى أنه بينما كان الرسول في سفر طلب إليه أن يحدو ، فقال :

قضينا من تهامة كل حق وخير ثم أجمعنا السيوفاً
فخيرها ، ولو نطقته لقاتل قواطعهن دوساً أو ثقيفاً

فقال عليه السلام : والذي نفسى بيده لى أشد عليهم من رشق النبل ، ويقال أن دوساً أسلمت فرقا من هذه الكلمة .

وقد كان هذا الشاعر ثالث ثلاثة من الشعراء وقفوا لشعراء قريش ،

(١) سورة التوبة الآية : ١١٧

وناضلوا دون الدعوة ، وبلغوا من ذلك ما حمده لهم الرسول والمؤمنون
وكان جيد الشعر حتى قال بعض المتذوقين للشعر : أن أشجع بيت
وصف به رجل قومه قول هذا الشاعر الصحابي الجليل .

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا يوماً ، ونلحقها إذا لم تلحق

وقد شهد هذا الفتى جميع غزوات الرسول ماعداً (بدرآ) ، وقال
عن نفسه : لقد شهدت مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليلة
العقبة حين توائمتنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ،
وإن كانت بدر أذكر في الناس منها ، كما حدث عن نفسه — أيضاً —
بأنه لم يكن في يوم من الأيام أقوى ولا أيسر منه حين هم النبي بغزوة
تبوك .

هذا الفتى الجلد الموسر يرى رهطاً من المسلمين الصادقين يذهبون
إلى الرسول يطلبون إليه أن يهيء لهم راحل يغزون عليها فيعتذر
الرسول بأنه لا يجد ما يحملهم عليه ، فيعودون وأعينهم تفيض من الدمع
حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ، وفيهم نزل قوله تعالى من سورة التوبة وهي
تحدث عن الذين تخلفوا عن رسول الله والذين أبدوا بعض الأعذار :
« ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون
حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم
ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا

وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون»^(١) .

ويرى هذا الشاعر عثمان بن عفان — رضى الله عنه — يقدم للرسول ألف بعير ، وسبعين فرساً ، وعشر آلاف دينار ، فيقبلها النبي في حجره ، ويقول : ماضر عثمان ما عمل بعد اليوم .

ويرى قوماً من المنافقين حين تأهب الرسول للخروج يقولون : لا تنفروا في الحر ، فيزل قوله تعالى : « فرح اختلفون بمقعدكم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرّاً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلاً وليكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون»^(٢) .

يرى كل هذا ، ولكنه — مع صحبته وصدق إيمانه — يتردد في الخروج مع جيش المسلمين ، ويظل بين عزيمة وتراخ حتى يسرع الناس ، فيهم أن يدركهم ، ولكنه لا يفعل ، ويتلفت حواليه فلا يرى متخلفاً إلا رجلاً متهماً بالنفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون غير أنه يرى تسعة من المسلمين منهم إثنان شهدا (بدرّاً) قد تخلفوا ، فيسرى ذلك عن نفسه بعض الشيء .

ويضرب بعض الصحابة المثل الرفيعة في حب الرسول ، والجهاد ،

(١) سورة التوبة الآيات ٩١ ، ٩٢

(٢) سورة التوبة الآيات : ٨١ ، ٨٢

ولكن الله لا يشرح صدره للحاق بالمجاهدين لأمر هو بالغه ، فلا شك أنه علم بقصة ذلك الصحابي الجليل الذي بلغ بستانه ، وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل ، وبسطت إليه الحصيرة ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر ، وقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — في الضح^(١) والريح ما هذا بخير !! !

فقام ، ورحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ولحق بالغزاة المجاهدين ولكن هذه القصة الرائعة لم تشد — أيضاً — من عزمه ، ولم تقص — وكانت حربة — على ترده ، فيظل في المدينة ، حتى يرجع الجيش ، فيتقدم إلى رسول الله ليسلم عليه ، فيبتسم له النبي تبسم المفضل ، ويؤنبه على تخلفه ، ولكن الرجل — وقد رأى أكثر من ثمانين رجلاً يعتذرون للرسول ، ويخلفون له فيقبل الرسول علانيتهم ، ويعفو عنهم — يأبى أن يمتحل المعاذير ، أو يلجأ إلى الجدل مع قدرته عليه ويعلمها للرسول بأنه ما كان صاحب عذر ، ويرجو عقبي الصديق عند الله ، وقد نهج نهجه في هذا صحابي آخران هما مرارة بين الربيع العامري ، وهلال بن أمية الواقفي ، وكلهم من الأنصار ، وأولئك الذفر الثلاثة هم (الثلاثة الذين خلفوا) ، أما السبعة الآخرون من المؤمنين المتخلفين فقد اشتد بهم الغم والحزن ، فأوثقوا أنفسهم في سوارى مسجد الرسول وأبوا أن يفك وثاقهم أحد غير محمد — صلى الله عليه وسلم — ، ولكن

(١) الضح : بكسر الضاد : الشمس ، وضوؤها . ا . قاموس .

لم يقدم من ذات نفسه على حل وثاقهم ، وانتظر بهم حتى نزل قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم »^(١) فيحل النبي وثاقهم ، ويعفو عنهم .

ويرجى أولئك نفر الثلاثة ، وينهى الناس عن التكلم معهم ، فيجتنبهم الناس ، حتى أقرب المقربين إليهم ، فيجلس الرجلان في بيتيهما يبكيان ، ويبقى صاحبنا الشاعر متردداً بين بيته والمسجد ، ويشهد الصلاة ، ويطوف في الأسواق ، ولكن أحداً لا يكلمه ، ويحضر الصلاة مع الرسول ، ويظل يسارقه النظر ، فيعرض الرسول عنه ، ويطمع في ابن عم له فيتسلق عليه الجدار فيسلم عليه ، ولكنه لا يظفر برد عليه .

ويقبل شهر شوال فيرتجف شاعر الرسول أشد الارتجاف ، ويضطرب غاية الاضطراب ، وتضيق عليه الأرض بما رحبت ، وتضيق عليه نفسه . ذلك أن سورة بأكملها تنزل في شأن غزوة تبوك ، ويسمعها ، ويقرأها فإذا هي ذات طابع خاص ، فهي لم تبدأ كغيرها من سورة القرآن بالبسملة لما فيها من وعيد شديد ، ولما اشتملت عليه آياتها من صرامة وتخويف ، فهي تهدد الكافرين ، وتفضح المنافقين وتنال بعض آياتها المؤمنين ، وتشهر السورة بين مجتمع المدينة باسم

(١) سورة التوبة الآية : ١٠٢

(المبصرة) لأنها كشفت وبعثت نوايا المنافقين ، وباسم (الفاضحة) وأخيراً تسمى سورة (التوبة) .

ويبدأء صاحبنا يتلو السورة فإذا أولها إعلان لبراءة الله من الكافرين « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » ولا يكاد يمضي في قراءتها قليلاً حتى يجدها تتمجد الجهاد والمجاهدين : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم »^(١).

ويكاد ينخلع قلبه من بين جنبيه حين يمر بهذه الآية التي يدرك شدة وقعها المؤمنون الفاقهون : « قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأذن الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين »^(٢) .

حقيقة ، هو يحب الله ورسوله ، وهما أحد إليه مما سواهما ، وحقيقة ، هو لم يتخلف لإيثار شيء من هذه الشاغل ، ولكنه يخشى أن يكون الشيطان تدسس إلى قلبه في بعض اللحظات ، وللشيطان

(١) الآيات : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ التوبة

(٢) الآية : ٢٤

دبيب خفي ، وهمس غامض ، فيكون من الفاسقين ، ويكون معرض لهذا التهديد العنيف .

ويشتم حزنه وألمه حين يصل إلى قوله تعالى : « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً »^(١) ، وإلى قوله سبحانه يوبخ المتخلفين ، ويبين سوء طويتهم : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون »^(٢)

ولكن الصحابي الجليل مع هذه الشدة التي يعانها ، وهذا الضيق النفسي الذي يعيش فيه يعرف لدينه حقه ، ولرسوله منزلته من نفسه . وندعه يتحدثنا عن نفسه فيقول :

بينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدموا بالطعام يديعونه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ، قال : فطلق الناس يشيرون له إلى حتى جاءني فدفع إلى كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه : أما بعد ، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ، ولا مضبغة ، فالحق بنا نواسيك . قال : فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء ، فتيأمت بها التنور فسجرتها فيه .

(١) الآية ٣٩ التوبة

(٢) الآية : ٤٣ التوبة

ويزداد البلاء شدة بعد الأربعين ، فيأتيه أمر من الرسول بأن يعزل امرأته ، كما يجيء هذا الأمر لصاحبيه ، ويمتثلون الأمر ، ويظلون يعاونون من هذا البلاء إلى أن تكمل المدة خمسين يوماً ، وهى نفس المدة التى قضاهما المسلمون المحاجدون خارج المدينة ، فينزل قول الله تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » (١) .

حيثئذ يعود الفرح إلى المدينة ، وتنطلق البشرى نحو النفر التائبين ، ويقف أحد الصحابة على الجبل ليعلمها ، ويقبل صاحبنا إلى رسول الله فيتلقاه الناس فوجاً فوجاً يهتفونه ، يقولون : لتهنك توبة الله عليك ، ويسلم على رسول الله ، ووجهه يبرق من السرور ، وجه رسول الله ، ثم يقول الرسول : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك .

قال شاعرنا : قلت : يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق ، وأن من توبى ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت .

قال : فوالله ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى

(١٠) سورة التوبة الآيتان : ١١٧ ، ١١٨

يومي هذا أحسن مما أبالني الله به ، والله ، ما تعمدت كذبة منذ قلت
ذلك لرسول الله ، وإنني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي .

• • •

وهكذا عاش شاعر رسول الله (كعب بن مالك) الأنصاري
في هذه المحنة القاسية ، وخرج منها نقياً طاهراً ، يحب الله ورسوله ،
ويحبه الله ورسوله .

مولد الرسول في الملاح النبوية

كانت الأشعار التي قيلت في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم -
أو في جهاد المشركين ، والرد على شعرائهم ، على عهد حسان بن
ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وأبي سفيان بن الحارث ، وأضرابهم
تؤخر بالحديث عن الإسلام ، وعن القرآن ، وهداية البشر ، وقتال
الكفار ، وتتضمن الإقرار بوحدانية الله وطاعته ، والثناء عليه
مبجانه وتعالى ، والحديث عن الجهاد ، كما قال كعب بن مالك
حين اعتزم رسول الله السير إلى الطائف :

لطيع نبينا ونطيع ربنا هو الرحمن كان بنا رءوفاً
فإن تلقوا إلينا السلم نقبل ونجعلكم لنا عضداً وريفاً
وإن تأبوا نجاهدكم ونصبر ولا يك أمرنا رعشاً ضعيفاً^(١)

كما كانت صورة من المديح الجاهلي ، فهي حافلة بوصف الرسول
بما كان يصف به الشعراء السابقون للإسلام ممدوحهم من الجود

(١) الريف : أرض فيها زرع وخصب . العرش : الجبان .

والشجاعة والوفاء ، وكرم الأصل ، وطيب العنصر ، كما قال عبد الله
ابن الزبيري بعد إسلامه يمدح الرسول :

قرم علا بذيانه من هاشم فرع تمكن في النري وأروم^(١)

والنبي مهند من سيوف الله ، وهو خير من حملته ناقة على أوصالها
وقد عمت فضائله كل العباد ، كما عم البرية ضوء الشمس والقمر ،
وهو ركن معتمد ، وعصمة لائذ ، وجار مجاور ، وهو — كما قالت
قتيلة بذت الحارث^(٢) — نجل كريم في قومها ، والفحل فحل معرق ،
وذكره كما قال الأعشى — أغار في البلاد وأنجد وهكذا .

فلما صارت المذائح النبوية باباً واسعاً في الأدب العربي انتهج
شعراء المديح مناهج جديدة ، فزادوا على الأوصاف السابقة نظم
السيرة النبوية بحيث نكاد نرى لكل صغيرة وكبيرة حدثت في عهد
الرسول صداها في هذه المذائح .

وبعض المذائح تسجيل لحياة الرسول منذ ولادته إلى أن انتقل

(١) القرم : السيد . النري : جمع ذروة ، وهي أعلى الشيء . أروم :
جمع أرومة ، وهي الأصل .

(٢) ما جاء في هذه القصيدة من أوصاف للرسول صحيح ، ومعترف به
من كل منصف ، وإن كانت القصة غير صحيحة لأنها من رواية هشام ابن الكلبي .
وفيه يقول الإمام أحمد : إنما كان صاحب سمر ونسب ، ما ظننت أن أحداً يحدث
عنه ، وهو معدود في الضعفاء .

إلى الرفيق الأعلى ، حتى لو نثرتها لم تعد أن نحصل على فصل أو فصول من كتب السيرة .

وكان مولد الرسول — صلى الله عليه وسلم — من الموضوعات التي عنى بها شعراء المديح ، فقد اعتبروا ذلك اليوم — وهم محقون — أكثر الأيام بركة وخيراً في تاريخ البشرية ، فكل مكرمة نالتها الإنسانية ، أو ستناها عن طريق الإسلام إنما مرجعها ومنتهاها إلى اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، الموافق العشرين من شهر أبريل عام ٥٧١ م^(١).

وقد تفتحت قرائح الشعراء عن صور من الحقيقة ، ومن الخيال ، أبرزوا فيها هذا اليوم المبارك ، فوصفوه بما يستحق من سنى الأوصاف وجلوه في معرض جميل رائع يليق بسيد المرسلين .

وأول ما يلفت النظر في تمجيد يوم الميلاد عند هؤلاء المداح هو الحديث عن الإرهاصات التي صحبت مولد النبي ، والتي جاءت في قصة سبقت مبعثه — صلى الله عليه وسلم — ، وقد روتها كتب الأدب ، وألمت بها كتب السيرة ، وهذه صورة مما ورد لهذه القصة :

(جرير بن حازم عن عكرمة عن ابن عباس . قال : لما كان

(١) اتفق الثقات من الرواة على أن ولادة النبي كانت في يوم الاثنين ، واشتهر أنها كانت في الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، ولكن بعض الباحثين من المحدثين حقق أن الولادة كانت في اليوم التاسع من هذا الشهر (انظر مجلة الأزهر ، عدد ربيع الأول سنة ١٣٦٧ هـ ص ٢٢٩) .

ليلة ولد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ارتج إيوان كسرى ، فسقطت منه أربع عشرة شرفة ، فعظم ذلك على أهل مملكته ، فما كان أوشك أن كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن (بحيرة ساوة) غاضت تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن (وادي السماوة) انقطع تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب (طبرية) أن الماء لم يجر تلك الليلة في (بحيرة طبرية) ، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن (بيوت النيران) خمدت تلك الليلة ، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة ، فلما تواترت الكتب أبوز سربوه ، وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر ، فقال الموبدان : أيها الملك ، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتي ، قال له : وما رأيت ؟ قال : رأيت إبلا صعبا ، تقود خيلا عربا ، قد اقتحمت دجلة ، وانتشرت في بلادنا . قال : رأيت عظيما ، فما عندك في تأويلها ؟ قال : ما عندي فيها ، ولا في تأويلها شيء ، ولكن أرسل إلى عاملك بالبحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم ، فإنهم أصحاب علم بالحدثان^(١) . . . فبعث إليه (عبد المسيح بن بقليلة الغساني) فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر فقال له : أيها الملك والله ما عندي فيها ، ولا في تأويلها شيء ، ولكن جهزني إلى خال لي بالشام يقال له : (سطيح) ، قال : جهزه ، فلما قدم على سطيح وجده قد احتضر ، فناده فلم يجبه ، وكلمه فلم يرد عليه ، فقال عبد المسيح :

(١) الحدثان - بكسر الحاء - نوب الدهر ، كحوادثه

أصم أم يسمع غطريف اليمـن يا فاضل الخطة أعيت من ومن
 أذاك شيخ الحى من آل سـنن أبيض فضفاض الرداء والبدن
 رسول قيل العجم يهوى للوثن لا يهرب الرعد، ولا ريب الزمن
 فرفع إليه رأسه ، وقال : عبد المسيح ، على جمل مشيخ ، إلى
 سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاج
 الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبدان ، رأى إبلا صعبا ، تقود
 خيلا عرابا ، قد اقتحمت فى الواد ، وانتشرت فى البلاد ، يا عبد
 المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وفاض وادى السماوة ، وظهر صاحب
 الهراوة فليست الشام لسطيح بشام ، يملك منهم ملوك وملكات ،
 عدد سقوط الشرفات ، وكل ما هو آت آت ، ثم قال أبيانا من الشعر .
 فرجع عبد المسيح إلى كسرى وأخبره بما قال سطيح فغمه ذلك ،
 ثم تعزى فقال : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً يدور الزمان ،
 فهل كوا كلهم فى أربعين سنة^(١) .

وقد ردد أصحاب المدائح هذه الظواهر فى أشعارهم ، يشير أحدهم
 إلى بعضها ، ويستقصى آخر . ومن أوائل من أشاروا إلى بعض ذلك
 الإمام جمال الدين الصرصرى^(٢) العراقى الضرير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ،

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٧٤ . ط سعيد العريان .

(٢) اشتهر عند مؤرخى الأدب . أن أول من فتح باب المدائح النبوية بعد أن
 سكنت الشعراء زمنا طويلا ، هو الإمام البوصيرى ، وهذا خطأ ؛ لأن الصرصرى
 سبق البوصيرى إذ توفى الأخير سنة ٦٧٦ هـ وسبقهما الشيخ عبد الرحيم البرعى
 الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى .

وقد توفي شهيداً ، قتله التتر في بلده (صرصر) . حيث قال يذكر
ميلاد الرسول :

وطاف به الأملاك تمنع مهده أذى كل شيطان يخاف اقتحامه
وكسرى أنو شروان زلزل قصره وشق ، وتاج الملك فك نظامه
ونار مجوس الفرس أطفئ وقدها ولم يك في الإعصار يخوضراره
والشعر ضعيف ، ولكن الذى يعنينا هو سبق الإشارة في الشعر
إلى بعض الإرهاصات التي صحبت المولد .

ولكن الذى أجاد تسجيل هذه الأحداث هو الإمام البوصيرى ،
فقد ذكرها في همزيته ، فقال :

وتداعى ايوان كسرى ولولا آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كان لنيرانهم بها أطفاء

كما ألم بنفس المعانى في قصيدته (البردة) ، فقال :

وبات إيوان كسرى وهو منصع
كشمَل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف
عليه والنهر ساهى العين من سدم
وساء (ساوة) أن غاضت بحيرتها
ورد واردها بالغيط حين ظمى

كأن بالنار ما بالماء من بلل
حزناً ، وبالماء ما بالنار من ضرر

ونلاحظ أنه صرح هنا باسم البحيرة التي غاص مأوها ، وهي بحيرة
(ساوة) ، وقد وردت في القصة التي أثبتنا آتفاً ، ومنها يفهم أن
(ساوة) في بلاد اليمن ، لأن الذي كتب بشأنها إنما هو صاحب اليمن ،
ولكن صاحب المولود المشهور بمولود (البرنجي) حددتها تحديداً
آخر ، فقال : (وغاضت بحيرة ساوة ، وكانت بين همدان وقم
من البلاد العجمية) .

كما حدد وادى السماوة في قوله : (وفاض ماء سماوة ، وهي مفازة
في فلاة

والمشهور أن بحيرة ساوة هي التي غاضت ، وقد تردد ذلك في
أشعار المدائح النبوية ، ولكن القاضي (عياضاً) ذكر في كتابه
(الشفاء) أن البحيرة التي غاضت هي بحيرة طبرية^(١) .

وقد علق الشهاب الخفاجي على قول عياض ، فقال : (المعروف
بالفيض — كما في البرهان — بحيره ساوة) ثم قال : (والحق أنها
بحيرة طبرية) ، وقد سبق في القصة أن البحيرتين كليهما غاضتا .
وساوة في بلاد فارس ، كما ذكر صاحب المولود ، أو في اليمن كما

(١) ٣٦ ص ٣١٤ .

يفهم من القصة . أما طبرية فهي بلدة بالشام معروفة ، بينها وبين
القدس مرحلتان ، وبحيرتها عظيمة .

وقد تبع أحمد شوقي الإمام البوصيري في الإشارة إلى تصدع إيوان
كسرى ، فقال في نهج البردة :

سرت بشائر بالهسادى ومولسده
فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم
تخطفت مهج الطاغين من عرب
وطيرت أنفس الباغين من عجم
راعت لها شرف الإيوان فانصدعت
من صدمة الحق لا من صدمة القدام

وكرر ذلك مرة أخرى فى نفس القصيدة فقال :

وخل كسرى وأيواناً يسدل به
هوى على أثر النيران والأيم^(١)

وقد روى حديث الإرهاصات (البيهقي) و (ابن أبي الدنيا)
و (ابن السبكي) كما شرح فى شرح الشفا ، ومعنى هذا أنه لم يرد فى
الكتب الصحاح ، ومن هنا تطرق الشك إلى هذه القصة .

وأول ما تمسك به الشاكون فيها أن القصة تحمل فى طياتها بعض

(١) الأيم : الدخان

المتناقضات ، فهي تقول : أن أربعة عشر ملكاً من ملوك الفرس هلكوا في أربعين سنة ، ذكر ذلك غير واحد منهم صاحب الشفاء ، وقد جاء في شرحه أن النبي — صلى الله عليه وسلم — ولد في عهد كسرى أنو شروان ، وكتب كتابه المشهور إلى كسرى أبرويز ابن هرمز بن أنو شروان .

وجاء في كتاب (الكامل) لابن الأثير : (ولد رسول الله سنة اثنتين وأربعين من سلطان كسرى أنو شروان ، وبعث لإثنتين وعشرين من ملك كسرى أبرويز بن كسرى هرمز بن كسرى أنو شروان ، وهاجر لإثنتين وثلاثين من ملك أبرويز) ^(١) .

فلوك الفرس في هذه الفترة ثلاثة فقط .

وسواء صحت القصة أم لم تصح فإن الذي حدث فعلاً أن ملك الأكاسرة كله ذهب بعد قليل من ظهور الإسلام ، وأن الأيوان لم تسقط منه أربع عشرة شرقة فحسب ، بل أصبح كله كما قال عنه البحري في القرن الثالث الهجري :

لو تراه علمت أن الليلى جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وكان فيما ذكر من طريف الحكايات أن رجلاً من (غامد)
كانت له غنم يرعاها ، فإذا جاءت الظهيرة لحاً بها إلى بقايا الإيوان ،

فتقبل فيه ، فربما صعدت بعض الأغنام ، فنامت في مكان جلوس كسرى .

وذات يوم جلس هذا الرجل مع صاحب له يتذاكران أحداث الأيام ، وتقلبات الدهور ، فقال صاحبه : ومما رأينا من العجائب صعود غنيمات الغامدى في سرير كسرى .

وكما أشار شوقى إلى تصدع إيوان كسرى عند ولادة الرسول ، أشار إلى خمود نار الفرس ، وإلى غيض الماء فقال :

ذعرت عروش الظالمين فزلزلت وعلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم خمدت ذوائبها ، وغاض الماء
والآى تترى ، والخوارق جمّة جبريل رواح بها غداء^(١)

ومن هنا نرى أن (شوقى) تبع البوصيرى في كل هذه الأمور التى ظهرت ، أو قيل أنها ظهرت عند مولد الرسول ، ولا نرى وجهها لقول بعض الباحثين أن (شوقى كان أبعد نظراً من البوصيرى في نقد الأخبار والآثار) .

(١) فسر المعلق على الشوقيات كلمة (تترى) بكلمة (تتوالى) ظناً منه أنها فعل ، والحقيقة أنها اسم ، لأنه لا يوجد فعل ماض من هذه الصيغة حتى تكون هذه مضارعاً له .

وقد أشار البوصيرى إلى قصة (تشميت الملائكة) لارسل - صلى الله عليه وسلم - فى قوله :

شميتهم الأملاك إذ وضعته وشفتنا بقولها الشفاء والشفاء هى أم عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنهما - .

وحديث التشميت رواه سيدنا عبد الرحمن بن عوف ، كما جاء فى كتاب (الحلية) لأبى نعيم ، وقد حضرت الشفاء ولادة النبى ، وأخبرت إنها بذلك ، ولم يشر إلى هذه القصة شوقى ولا أكثر المداح .

كما أشار كثير من المداح إلى قصة رضاع النبى فى بنى سعد ، وكيف جاءت حليلة السعدية تبغى طفلاً ترضعه ، واضطرت أخيراً أن ترضى بهذا اليتيم فيكون بركة عليها ، قالوا : إن نساء بنى سعد وفدن فى سنة مجدية على مكة يلتمسن الرضعاء ، وكان يهمن المال ، فما منهن واحدة إلا عرض عليها اليتيم فصدهن عنه يتمه ، أما حليلة السعدية ، ذات الإثنان العرجاء ، والناقصة المسنة ، فقالت : (والله ما بقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعاً غيرى ، فلما لم أجد غيره قلت لزوجى : والله . إني لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلاأخذنه) .

وأخذته فلدت شاتها ، وأخصبت أرضها ، ولقيت من يمنه - صلى الله عليه وسلم - ما قوت به عينا .

وقد أجاد البوصري في عرض هذه القصة حيث قال :

وبدت في رضاعه معجزات	ليس فيها عن العيون خفاء
إذ أبته ليتمه مرضعات	قلن : ما في اليتيم عنا غناء
فأنته من آل سعد فتاة	قد أبته لفقرها الرضعاء
أرضعته لبانها فسقتها	وبينها ألبانها الشاء
أصبحت سولا عجافا وأمست	ما بها شائل ولا عجفاء
أخصب العيش عندها بعد حمل	إذ غدا للنبي منها غذاء
ياها منة لقد ضوعف الأجر (م)	عليها من جسدتها والجزاء
وإذا سخر الإله إناسا	لسعيد فإنهم سعداء

وهي أبيات جميلة حقاً ، لكن للمتأصل هنا وقفة ، فقد بذيت القصة على أن المروضعات أبين أخذ (محمد) ليتمه وفقره ، وأن حليلة أباه أمهات الأطفال وآباؤهم في مكة لفقرها .

والوقفة في الجزء الأول ، فمن المعروف المشهور أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان في سنواته الأولى في كفالة جده (عبد المطلب) وهو إذ ذاك سيد قريش ، ومن أغنيائها ، وقصة إبله مع صاحب الفيل معروفة ، فكيف يقال أن المروضعات أبين محمداً ليتمه أو لفقره ، إن أردن المال فهو في كفالة غني من أكبر أغنياء مكة ، وأن أردن الجاه فكانة عبد المطلب معروفة مشهورة عند جميع قبائل العرب .

أما ما حدث من المعجزات في أيام مقامه في بني سعد فلا أحد يستبعدا ، ولكن ينبغي أن تصح الرواية ، فالنبي - صلى الله عليه وسلم ، ليس في حاجة بعد القرآن وبعد ما صح من المعجزات الحسية التي وقعت له ، ليس في حاجة بعد ذلك إلى أن نضيف إليه شيئاً إلا إذا تأكدنا من صحة روايته .

كما أشار بعض الشعراء المحدثين إلى حادثة (الفيل) ، ومعلوم أن الفيل نكل أن يمس الكعبة ، وقد ولد النبي عام الفيل ، قال الشاعر :

أدرك الفيل بالغريزة معنى كان عند الفيل معنى بعيداً
حامد لما رأى الجلال عن البيت ولولاه لم يكن ليحييها
آية للوايد علمت العجم (م) فواحت تفتطم المولودا

هذه كلها إشارات إلى قصص مشهورة ، أما عمل الخيال في وصف يوم الميلاد فقد جاءت منه بدائع سطرها الشعراء قديماً وحديثاً ، ويعجبني قول شاعرنا الشيخ محمد الأسمر - عليه رحمة الله وبه أختتم هذا الحديث :

يوم أغر كفاك منه أنه يوم كأن الدهر فيه تجمعا
ويكاد غابر كل يوم قبله يشنى إليه جيسه متعلعا
فلو استطاع لكر من أحقابيه وثباً على هام السنين ليرجعاً

ويكاد مقبل كل يوم بعده
فلو استطاع لجاء قبل أوانه
تتنافس الأيام في الشرف الذي
خير أفاض الله منه على السورى
ينسل من خلف الزمان ليسرعا
وانساب يخرق السنين وأتلعا
مألاً الوجود فلم يغادر أصبعا
أنى جرى ترك الحجاب الممرعا

المراجع النبوي

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

هذه هي الكلمة الأولى في العقيدة الإسلامية ، وفيها يقترن اسم محمد بن عبد الله باسم الله العلي العظيم ، خالق الأرض والسماوات . والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يكررون هذه الشهادة في الصلوات الخمس ، وفي غير الصلوات الخمس ، فهي كلمة تقال في اليوم الواحد مئات الملايين ، وكفى بذلك شرفاً وامتداداً لرسولنا الكريم — صلى الله عليه وسلم .

ولكن الشعراء ، وقد ملأت نفوسهم محبة الرسول ، واختلط الإيمان برسائله ، وبعظمته ، وباصطفاء الله له . . اختلط كل ذلك بدمائهم أرادوا أن ينالوا شرف المثلوث ببابه ، وأن يزينوا أشعارهم بذكر صفاته العالية .

والقلوب إذا امتلأت حباً فاض عيبره على الألسنة ، والصدور إذا غلبها الشوق أودعته الصحائف .

وقد علم الشعراء أن نبيهم — صلى الله عليه وسلم — ليس كغيره من أعيان الرجال ، وكبار الساسة ، وعظماء المصلحين . . أولئك

الذين يرفع المدح من أقدارهم ، ويعلى من مكانتهم ، ويخلد مآثرهم ، بل هو — صلى الله عليه وسلم — أعلى في الشرف مكاناً ، وأسى المفاخر منزلة ؛ فقد رفع الله ذكره ، وفضله على العالمين ، فما به حاجة إلى شعر الشعراء ، ونثر الكاتبين .

علموا ذلك ، وثيقنوه ، ولكنهم رغبوا أن يتمسحوا بالأعتاب وأن يقفوا بأكرم وأرفع باب ، وأن ينالوا بما يقولون حسن الثواب كما قال أمير الشعراء :

لزمت باب أمير الأنبياء ومن يمسك بمفتاح باب الله يغتنم
علقت من مدحه حبلاً أعزبه في يوم لا عز بالأنساب والحم

مدح الله سبحانه رسوله بقوله : « وأنتك لعل خلق عظيم » ،
وامتن عليه بما من ، فقال : « وكان فضل الله عليك عظيماً » ،
فإذا يصنع الشعراء ، وأى سبب يتعلقون به حتى يصلوا أو يقاربوا

غاية المدح في علاك ابتداء ليت شعري ما يصنع الشعراء؟!

إنهم أحسوا أنهم كالنافلة ، بينها وبين الفرض بون بعيد ،
وعرفوا مكانهم الحق فقال أحدهم (عمر بن الفارض) :

أرى كل مدح في النبي مقصراً وان بالغ المثنى عليه وأكثر
إذا الله أننى بالسدى هو أهله عليه ، فما مقدار ما يصنع الورى

وقال آخر (الامام البوصيرى) :

إن معجزاتك العجز عن وصفك إذ لا يحده احصاء
 ويعجبني جد الإعجاب ما يقوله هذا الإمام الجليل ، وهو غاية
 في المدح والثناء ، والا عتراف بالعجز عن الوصول إلى المدى :
 فبلغ القول فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم
 كما يعجبني قول التقي الصالح عبد الرحيم البرعي :
 صفوه بما شتم فوالله ما انطوى على مثله في الكون أم ، ولا أب
 والباحث يجد كثيرين من الشعراء مدحوا الرسول ، وتركوا كثيراً
 من الشعر في هذا الغرض يكاد يعي من يحاول الاستقصاء ، وفي
 مجموعة واحدة ، هي مجموعة النباهي عشرون ألف بيت ، مع أن
 صاحبها لم يدون كل ما قيل ، ولا جزءاً من عشرة أجزاء .
 وقد كان للرسول في حياته شعراء يمدحونه ، ويهجون خصومه ،
 ويدافعون بألسنتهم عن الإسلام ، وكان من أشدهم على المشركين
 حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وقد دعا الرسول لحسان ،
 فقال : اللهم أيده بروح القدس .

ومن مدائح القدaisy المشهورة مدحة كعب بن زهير ، ومدحة
 النابغة الجعدي ، ومدحة أعشى بكر . وقد كانوا يمدحون النبي
 — عليه الصلاة والسلام — بحسن الخلق ، والصدق في القول ، والأخلاص
 في العمل ، والعفو عند المقدرة ، وما أشبه ذلك من الصفات النفسية .

فلما كانت العصور المتأخرة توسع الشعراء في المديح ، فجعلوا يضيفون إلى معاني الأولين كل ما يتصل بالسيرة النبوية ، فيذكرون معجزاته ، وأرهاصات نبوته ، ومولده ورضاعه ، وغزواته . . . وهكذا . .

وكان إمام المداحين — بلا منازع — شرف الدين محمد بن سعيد البوصري ، وأن أخذت عليه بعض المآخذ .

نعم يبرز النفس أمثال ابن الفارض والبرعي والشهاب محمود ، ولكن البوصري في هذا المجال أمام الركب .

وقد يتساءل متسائل : ما بال كبار الشعراء أمثال المتنبي والبحتري وأبي تمام لم يقولوا في مدح الرسول ؟ .

وقد أجاب بعض الكتابين عن ذلك بأن مدح الرسول من جملة الطاعات ، وهؤلاء لم يوفقوا لهذه الطاعة ، كما أن كثيراً من الأغنياء لا يحجون ولا يزكون ، ولا يتصدقون ، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن أغراض الشعر العربي لم تكتمل كلها دفعة واحدة ، بل ظلت تنمو وتتدرج ، فيضيف كل عصر إليها غرضاً أو أكثر ، فشعر السياسة — مثلاً — نشأ في العصر الأموي ، وشعر الوعظ والزهد ازدهر في العصر العباسي ، وشعر المدايح النبوية شاع في العصر المملوكي وهكذا .

على أن بعض الشعراء مثل الكميث بن زيد والسيد الحميري ودعبل

ابن على قد شغلهم مدح آل البيت ، والبكاء لما أصابهم عن امتداح الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان صنيعهم هذا مذهبا سياسيا ، فلم يدخل فيه من لم يكن على مذهبهم .

وربما كان أحجام كبار الشعراء عن هذا الغرض شعورهم بالقصور حياله ، فهم يهيمون في الخيال ، والخيال لا يعنى هنا ، بل ربما كان بعضهم حاول ذلك ولكنه لم يرض عما تيسر له من المعانى ، ورآها دون الجيد من شعره فأعرض مفحما لا مقصرا .

وأيا ما كان فقد أفاض المتأخرون في مدح الرسول ، وبعضهم نظم في هذا الغرض دواوين بأكملها . ونجد هذا الاتجاه الطيب عند شعراء السودان الذين عاشوا في أول هذا القرن أو فيما سبقه ، فما منهم إلا من مدح الرسول ، وبعضهم له ديوان كامل في المديح ، وبعض هذه الدواوين بالبلاغة العامة ، منها (ديوان أبي شريعة) ، وما زالت هذه الدواوين منهلا يرده كل من أراد المديح من أصحاب هذه الصفة الحبيبة إلى السودانيين .

وشعراء المديح النبوى ، وإن لم يكونوا كلهم من الشعراء المبرزين ، فقد أغناهم سمو الغرض ، وذات المملوح من بلوغ الذروة في البلاغة ، والنفس المؤمنة تجد في هذا الشعر غذاءها الروحى ، وإن لم تجد في بعضه البلاغة العالية والأسلوب الرصين . وهؤلاء الشعراء منذ عهد كعب بن زهير يتخذون الغزل فاتحة لمدايحهم ، وهذا تقليد عربى قديم ، فالشعراء يبتدئون

أكثر قصائدهم بالغزل ، وإن هجرت هذه العادة في بعض العصور عند بعض الشعراء ، ولكنها بقيت ملازمة للمدائح النبوية ، ولذلك قل أن نجد مدحة لاسيما المطولات ابتدئت بغير الغزل ، وغزل البوصيري في بردته ، وغزل شوقي في نهج البردة معروفان مشهوران .

ولكن يمتاز هذا الغزل بأن أكثره مهذب مؤدب ، وقد رسم (ابن حجة الحموى) صورة للغزل الذى تبدأ به المدائح النبوية ، فقال : (وهنا فائدة ، وهى أن الغزل الذى يصلح به المديح النبوى يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ، ويتأدب ويتضاعل ، ويتشبه مطرباً بذكر سلع ورامة وسفح العقيق ، والعذيب ، والغوير ، ولعلع ، وأكتاف حاجر) .

وقد كفانا ابن حجة مؤنة القول فى غزل المداحين ، ونؤيده بذكر مثل منه ، يقول الشهاب محمود الحلبي ، المتوفى سنة ٧٧٥ هـ :

رأى الركائب تحدى فأنثى كلها صب بكى أسفا ، والبين قد أرفا
مفرى بحب الحمى تهفو جوانحه إن برقه لاح أو قريره هتفا
يكاد يقضى عليه فرط لوعته إذا تذكر عهدا بالحمى سلفا

ومن غزل أمير الشعراء شوقي فى نهج البردة :

لما رنا حدثنى النفس قائلة يا ويح قلبك بالسهم المصيب رى

جحدتها ، وكتمت الحب في كبدي جرح الأحبة عندي غير ذى ألم
بالأثمي في هواه والهوى قدس لو شفقك الوجد لم تعذل ولم تلم
ياناعس الطرف لا ذقت الهوى أبدا أسهرت مضناك في حفظ الهوى فم

وربما ابتدأوا المدائح بغير الغزل ، وربما دخلوا على المدحة مباشرة .

والمدائح النبوية ديوان كامل لأهم أحداث السيرة النبوية ، فإن الشعراء جهدوا أن يضمّنوا مدائحهم كثيراً من أحداث السيرة ، كما نجد فيها ذكر الأماكن الحجازية ، والتشوق إلى زيارة بيت الله الحرام ، والحنين إلى مشاهدة مسجد الرسول وقبره بالمدينة ، وفيها ذكر لكثير من الصحابة ، وإشادة بمحاسن الشريعة ، وتكاد تكون المدائح النبوية أكثر الأشعار إشمالاً على الحكم والمواعظ ، وهى مواعظ مؤثرة غاية التأثير ، فإنها تواجه النفس وهى فى جو صفاء روحى ، فتمكن منها ، وتدفعها إلى الطاعات ، وكثيراً ما يتخذ المادح من محاسبة نفسه ، ومعاقبها عظة للآخرين ، يقول البرعى :

متى يستقيم الظل والعود أعوج وهل ذهب صرف يساويه هرج
هى النفس والدنيا وإيليس والهوى بطاعتهم عن طاعة الله أزعج
أريد مقام الصالحين وليس لى كنهجهم فى الدين دين ومنهج
إذا حضر الأخوان للذكر والبكا حضرت كأنى لاعب متفرج

وقال البوصيرى وهى من أروع المواعظ :

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به وما استقيمت فاقول لك استقم ؟
ولا تزودت قبل الموت نافلة ولم أصل سوى فرض ولم أصم
وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

وقد تقدم ذكر بعض الأماكن الحجازية ، ومن ذلك ما جاء
فى شعر يحيى الصرصرى - رحمه الله - الذى قتله التتار فى سنة
٦٥٦ هـ :

جاد الحيا (وادی الصفراء) وانبحست عيونه ، وكسا منه الربيع ربا
ولا نأى القطار عن (وادی العقيق) ولا زال الربيع عليه مشفقاً حديبا
وأضحت الناجيات القود من مرج لا تسأم الوحد فى البيداء والخبيا
وتستقل بنا والشوق يقدمها فلا تحس على طول السرى نصبا
إلى حمى ظاهر رجب الذرا عطر إذا أتته المطايا محمد الدأبا

شعراء المراثي

عدد يكاد يخطئه العدد هم أولئك الشعراء الذين مدحوا النبي - صلى الله عليه وسلم - ولذلك فمن المغالاة بالنفس أن يحاول باحث أن يترجم لهم جميعاً ، أو لأكثرهم ؛ لأن ذلك يتطلب مراجع من العسير أن يظفر بها باحث .

ولذلك فنحن هنا نكتفي بأقل القليل منهم ، بل بالنزر اليسير ، وليس ما يكتب هنا تراجم هؤلاء بمعناها العلمي ، وإنما هو إبراز لجانب من جوانب هؤلاء الشعراء هو موقفهم من مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم .

هؤلاء الشعراء الذين جاهدوا بألسنتهم ، فلم يكونوا أقل شأنًا من الذين جاهدوا بسيوفهم وأموالهم ، بل أن الرسول الكريم يثلج صدر حسان بن ثابت - رضى الله عنه - حين يخبره أن شعره أنكى في المشركين ، وأشد عليهم من وقع النبال .

فمعركة الكلمة في صدر الإسلام لا تقل شأنًا عن معركة السيف ، وربما سبقت الكلمة السيف ، فجاءت إحدى القبائل مسلمة لبيت من شاعر ، أخافها وأقلقها ، فأثرت السلامة ، وآمنت بما جاء به محمد - عليه الصلاة والسلام .

والمداح الذين جاءوا بعد استقرار الإسلام ، ودخول الناس في دين الله أفواجا ، كان لهم أيضاً شأن وأى شأن في تثبيت العقيدة الإسلامية في النفوس ، وفي سيادة الأخلاق الكريمة ، فهي في جملتها توسخ الحب الكامن في نفوس المؤمنين لنبي الإسلام ، وإذا قوى الحب ورسخ في النفس كان دافعاً قوياً لأن ينهج المنهج المحبوب ، وهكذا كانت المذائح النبوية من أسباب رسوخ العقيدة ، وحسن الاتباع للرسول ، وبالسير على منهجه ، والانقياد لأوامره ، والإعلاء لسنته ، والرسول الكريم خير أسوة يأتسى بها الرجل المسلم ، وكلما زاد حبه للرسول كان تمسكه بالإخاء به أقوى وأكثر .

ولطالما رأينا الجماعة من المسلمين تنشد عليهم المديحة لرسول الله فتصفو نفوسهم ، وتسمو مشاعرهم ، وربما أفلح أحدهم عن رذيلة طالما ارتكس فيها .

وما أظن عاقلاً ينكر تأثير الكلمة في النفوس ، وها نحن أولاء نرى آثار الكلمات السيئة التي تموج بها أغانيها في نفوس شبابنا ، بل لا أراى أعدو الحقيقة إذا قلت في نفوس شيوخننا أيضاً .

كما نرى - أيضاً - آثار الكلمات المؤمنة في النفوس ، تلك الآثار الطيبة التي تبعها قراءة قصيدة تحث على مكارم الأخلاق ، أو تكشف عن أخلاق كريمة في شخصية كريمة .

ولقد أراى محقاً إذا قلت أن الإنسان يتأثر بما يقرأه ، أو بما يسمع

أكثر مما يتأثر بما يرى ويشاهد ، وربما كان السر في ذلك أن الكلمة
نبت في النفس أمدأ طويلاً ، أما المنظر سواء كان جميلاً أو غير جميل
فإنه ينقضي أثره بانقضاء مشاهدته ، ولا يكاد يبقى في النفس منه
شيء إلا إذا كان منظرأ شديداً الإثارة .

ولقد ذهبت الوقائع التي كان لها آثار حاسمة في تاريخ الإسلام ،
وأصبحنا لا نعرف منها إلا ما نقرأه عنها ، لكن ما قيل من الشعر
في نصرة الدعوة ، وفي مديح الرسول — صلى الله عليه وسلم — ،
وما قيل بعد ذلك في إظهار محاسن الشريعة ، لا يزال باقياً تردده
الأجيال ، وتأثر به .

من هنا أثرت أن لا تخلو هذه الصفحات القصار التي يسعدنا
ویشرفها أن تكون معطرة بالوقوف مع الرسول الكريم ، أن لا تخلو
من الحديث عن هذه الفئة السعيدة التي شرفها أن تضيء أشعارها
بمديح خاتم النبيين .

ولما كانت هذه الصفحات — كما قلت — قصاراً اكتفيت بالحديث
عن بعض هؤلاء المداح ، وفي الحديث عنهم — كما أظن — غناء في
مثل هذه المواقف التي كان التدبير فيها ألا تطول .

حسان بن ثابت

من أشهر مداح الرسول ، ومن أنفذ المدافعين عن الدعوة لساناً ،
ومن أشد الشعراء على قريش وشعرائها .

حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام ، ينتمي نسبه إلى قحطان ، ومن
أجداده عمرو بن ماء السماء ، الذي يلقب (مزقياً) ، لأنه كان يلبس
كل يوم حلتين ، فإذا أمسى مزقها كراهة أن يلبسها ثانياً ، أو يلبسها
غيره ، وقد فخر أوس بن الصامت ، وهو من قبيلة حسان بالبيت
المشهور :

أنا ابن مزقياً عمرو ، وجدي أبوه منذر ماء السماء

إنما لقب (بماء السماء) لحسن وجهه

وقبيلة حسان (الخزرج) ، وهى و (الأوس) من القبائل التى
هاجرت أصولها من اليمن بعد تهديم سد (مأرب) ، وقد نزلت بيثرب ،
وأقامت بها زمناً طويلاً قبل الإسلام ، وكان بين القبيلتين إحن
وحروب ، ومفاخرات ، حمل لواءها عن قبيلة الأوس قيس بن
الخطيم ، وهو شاعر فحل ، وعن قبيلة الخزرج حسان بن ثابت ،
وكان ذلك قبل الإسلام .

وربط حسان الأدنون بنو النجار ، وهم أخوال النبی — صلى الله عليه وسلم — ، لأن أم عبد المطلب بن هاشم جد النبی كانت من بنی النجار .
فأصول حسان أصول عريقة في الخبد ، ونسبه نسب كريم ، وهو — بعد — يتصل بالنبي بصلة قريبة ، وثيقة .

من هنا لم يرهب حسان شعراء قريش الذين كانوا يقاومهم ، لم يخش أن يطعنوه في نسبه ، حين كان يطعن بعض سادة القرشيين في أنسابهم ولم يخف أن يرموه بخمول الذكر ، فهو شاعر الخرج ، والمدافع عنهم ، والمساجل للشاعر العظيم وقيس بن الخطم ، شاعر الأوس .
وهو الآن حين يهاجر شعراء قريش ، ويرد عليهم قد جاوز الستين من عمره ، فقد ولد حسان يثرب .

وقد حدث أنه كان ابن سبع أو ثمان سنين حين بشر يهود يثرب بميلاد الرسول ، وهذا يدل على مدة عمره في الجاهلية ، فالنبي — صلى الله عليه وسلم — كما هو معروف — بعث وله من العمر أربعون سنة ، وأقام بمكة — بعد البعث — ثلاثة عشرة سنة ، فقدم المدينة لحسان يومذاك ستون أو إحدى وستون سنة ، وحينئذ أسلم ، فهو من أوائل المسلمين من الأنصار .

فقد اجتمع لحسان كرم الأصل ، وعظم المكانة ، ورجاحة السن ، فلا غرو كان الكفاء القوي المنازلة شعراء قريش .

وقد عاش حسان مائة وعشرين سنة ، ستين في الجاهلية ، وستين .

في الإسلام ، وكذلك عاش أبوه ثابت ، وجده المنذر ، وجد أبيه حرام مائة وعشرين سنة ، ولا يعرف في العرب أربعة تناسلوا من صلب واحد ، وعاش كل منهم هذه المدة غيرهم .

ويكنى حسان (أبا الوليد) ، و (ابن الفريعة) ، وهي أمه من الخزرج ، وكثيراً ما كان ينسب إليها .

ولم يشهد مع رسول الله مشهداً ، ومع ذلك كان يحسن وصف المواقع كما لو كان من أبطالها ، وربما حضر المواقع ، ولكن لمؤازرة الجيش دون أن يشترك في القتال اشتراكاً فعلياً .

والمشهور أنه مات في خلافة معاوية سنة ٤٥ هـ ، وهذا يناقض ما قيل إنه عاش في الإسلام ستين ، فربما كان هذا القول على التقريب .

جاهد حسان بلسانه أعداء الرسول ، وثبت لشعراء قريش ، وتغلب عليهم ، وكان الرسول يحرضه على هجائهم ، ويعجب بشعره ، وقد أهدي له جارية تسمى (سيرين) ، وهي أخت مارية القطبية أم سيدنا إبراهيم بن الرسول ، كما ظل الخلفاء الراشدون يكرمونه ، ويعرفون له حقه .

وقد هفا حسان هفوة في حق السيدة عائشة — رضى الله عنها — ولكنها عفت عنه لجهاده في نصرة الدعوة الإسلامية .

روى أن عائشة كانت تطوف مع عقيلتين من عقائل المسلمين ، فتداكرتا حسان بالسب ، فقالت عائشة : ابن الفريعة تسبان ؟ أنى

لأرجو أن يدخله الله الجنة بذهبه عن النبي بلسانه ، أليس القائل ؟ :

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذلك الجزء
فأن أبى ووالده وجدى لعرض محمد منكم وقاء
والخطاب هنا لسفيان بن الحارث ، وكان من شعراء قريش الذين
هجوا النبي ، ثم أسلم ، وحسن إسلامه ، وكان من الذين ثبتوا مع
الرسول يوم حنين ، وقد فر أكثر المسلمين ، ثم عادوا .

وروى عنها أنها قالت : ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان
وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة .

وروت عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في شأن حسان :
لا يحبه إلا مؤمن ، ولا يبغضه إلا منافق .

موقفه من الدعوة الإسلامية :

كان يهجو رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، ويهاجم الدعوة
الإسلامية نفر من شعراء قريش ، منهم : عبد الله بن الزبعرى ،
وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب — وهو ابن عم الرسول — ،
وضرار بن الخطاب ، أخو سيدنا عمر ، وعمرو بن العاص ، فقال قائل
لعل بن أبي طالب — رضى الله عنه — : إهج عنا القوم الذين قد هجونا
فقال : إن أذن لى رسول الله فعلت ، فقال رجل : يا رسول الله ،
إئذن لعلى كى يهجو عنا هؤلاء القوم الذين هجونا ، فقال الرسول :

ليس هناك^(١) ، أو ليس عنده ذلك .

ثم قال للأَنْصار : ما يمنع الذين نصرُوا رسول الله بسلَاحهم أن ينصروه بآلسانهم ، فقال حسان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله مايسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء ، فقال الرسول : كيف تهجوهم ، وأنا منهم ؟ فقال : أنى أسلك منهم كما تسلك الشعرة من العجين .

وكان حسان كثيراً مايفخر بلسانه ، ومن ذلك قوله : ما سرنى به مقول من العرب ، والله ، لو وضعت على شعر حلقة ، أو على صخر لفلقه .

وقوله :

لسانى صارم لا عيب فيه وبحرى لا تكدره الدلاء
وكما يفخر بلسانه وبيانه يفخر ببلاء الأنصار في جهاد المشركين
لنا في كل يوم من معد قتال أو سباب أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حيث تختلط الدماء^(٢)

وفى رواية للأغاني أن النبي - صلى الله عليه وسلم - فضل حسان على صاحبيه : عبد الله بن رواحه ، وكعب بن مالك ، حيث قال :
(أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك

(١) عبارة موجزة ، معناها : لا قدرة له على هذا العمل .

(٢) نحكم : نخضع

فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت ، فشنى واستشفى (١) .

ولعل أبا عبيدة معمر بن المثنى اعتمد على هذا الحديث حين فضل حسان على سائر الشعراء ، وذلك حيث يقول : (فضل حسان الشعراء بثلاثة : كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي — صلى الله عليه وسلم — في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام) (٢) .

كان هؤلاء الشعراء الثلاثة يجيبون شعراء قريش ، وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم في الوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ، فكان أشد القول عليهم في ذلك الزمان قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا ، وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة .

وقد استعان حسان — كما أرشده الرسول — بأبي بكر ، وكان — رضى الله عنه — نسبة ، فعرف حسان أنساب القوم ، وما يعابون به فيها ، حتى أن قريشاً لما سمعت شعر حسان — ولم تكن تعرف قائله — ظنته شعر أبي بكر ، وقالت : لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا .

وعرف مكان حسان ، وأنه شاعر الرسول ، وخافه أعداء الدعوة حتى كان بعضهم يستجير بالرسول من لسانه .

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٤٢ .

(٢) الأغاني ج ٤ ص ١٣٦ .

فقد كان رجل من سادات العرب طلب من الرسول أن يبعث معه من يدعو قومه إلى الإسلام ، فأرسل معه رجلاً من الأنصار ، فغلرت به عشيرته وقتلوه ، فلما جاء الرجل إلى النبي يعتذر من فعله قومه بالأنصارى هجاء حسان ، ورماه بالغدر ، وبأن الغدر شيمة فيه وفي قومه ، فلجأ الرجل إلى الرسول ، وقال له : أجزنى من شعر حسان ، فلو مزج البحر بشعره لمزجه ، أكففه غنى يا محمد ، أنا عائد بك من شره .

وقد أخبر النبي أن روح القدس يؤيد حسان ، وبالع بعض الإخبارين في ذلك فزعم أن جبريل — عليه السلام — أعان حسان في مديح النبي بسبعين بيتاً .

ولو أن كل الشعر الذى قاله حسان وصل إلينا لعرفنا مدى نكابة هذا الصحابى الجليل بأعداء الدعوة الإسلامية .

ولكن سيدنا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — كان نهى الناس أن ينشدوا شيئاً من مناقضات الأنصار ، ومشركى قريش ، وقال : فى ذلك شتم الحى بالبيت ، وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام .

وقد كان لهذا النبي أثره عند المتورعين من المسلمين ، وإن كان عمر عاد فأباح للأنصار أن يرووا هذا الشعر ، ولكن ذلك لم يحفظه لنا كله ؛ لأعراض كثير من الرواة عن رواية المثالب .

وقد ساعد على إهمال كثير من الشعر أن الدولة الأموية التي تلت عهد الخلفاء الراشدين كان كبار رجالها — وقت الدعوة — في جانب المشركين ، ففي رواية هذا الشعر سب لآبائهم ، ولدنوى قرباهم ، فن البدهى أن يتحاشى الرواة رواية مثالب آباء الخلفاء وأجدادهم .

* * *

ولم تقتصر مدائح حسان على النبي — صلى الله عليه وسلم — وذكر غزواته ، وهجاء أعدائه ، وإنما شرفها أيضاً بمدح الصحابة — رضوان الله عليهم أجمعين .

ومن أروع قصائده في امتداحهم قصيدته العينية ، وهذه القصيدة قصة :

جاء إلى النبي وفد من قبيلة بني تميم ، كان زهاء الثمانين رجلاً ، فيهم كبار رجال القبيلة ، فخطب خطيبهم ، وقال شاعرهم — وكان الزبرقان بن بدر — فأجاب ثابت بن قيس الأنصاري خستيب بني تميم ، وكان حسان غائباً فبعث إليه رسول الله فجاء ورد على الزبرقان بقصيدة ارتجلها ، فبز خطيب الأنصار خطيب بني تميم ، وبز حسان الزبرقان فقال الأقرع بن حابس ، وهو سيد من سادات تميم ، وأحد رجال الوفد — : والله ، إن هذا الرجل (يريد النبي) — صلى الله عليه وسلم — (لمؤقني له ، والله لشاعره أشعر من شاعرنا ، وخطيبه أخطب من خطيبنا .

وقد بدأ حسان القصيدة بمدح المهاجرين والأنصار ، فأثنى عليهم
أولا بحسن بلائهم في نشر الإسلام ، وثانيا بشجاعتهم وسيادتهم :

إن الذوائب من فھر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت خليقته
تقوى الإله ، وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعا
ثم وصفهم بالخود والعفة والحلم ، ثم قال :

أعطوا نبى الهدى والبر طاعتهم
فما وئى نصرهم عنه ، وما نزعوا
إن قال سيروا أجندوا السير جهدهم
أو قال عوجوا علينا ساعة رجعوا
ما زال سيرهم حتى استقادهم
أهل الصليب ومن كانت له بيع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
إذا تفرقت الأهواء والشيع

ولا يقال إن حسان صدر فى هذه القصيدة عن عصبية ، وأنها

خالية من روح الدين — كما ذهب إليه المرحوم زكى مبارك في
المدائح النبوية — .

ذلك أن حسان لم يقصر قصيدته على الأنصار ، بل ذكر المهاجرين
في أول بيت ، بل ذكرهم قبل الأنصار .

وقد كان الموقف يقتضى حسان أن ينهج هذا النهج الذى جاءت
عليه القصيدة ، فهؤلاء القيميون فاخروا النبى والمسلمين برجالهم
وأجادهم فكان طبيعياً أن يكون الرد عليهم فخراً بالرجال والأجاد .

وفى القصيدة إشادة واضحة بالدين الجديد ينطق بها البيت الثانى ،
وإشارة إلى مجادة هؤلاء الأصحاب ، فهم قد أعطوا طاعتهم (نبى
الهدى) ، وهم كرام لأن رسول الله شيعهم ، مع لهم من أخلاق
كريمة فى السلم وفى الحرب .

فأين روح العصبية فى هذه القصيدة ؟

وكيف خلت من روح الدين ما عدا بيتاً منها ذكره الكاتب ؟

ولكن من الإنصاف لصاحب كتاب (المدائح النبوية) أنه لم
يقف من مرأى حسان موقفه من بعض مدائحه ، فقد أشاد بالمرأى ،
وبالروح الدينية التى فيها وذكر أن هذه المرأى تفيض بالمعاني الرقيقة
السمحة ، وتتم عن روح دينى مصقول ، غير أنه لم يترك الموضوع
حتى بعث شكاً ، فقال أنها قصائد لينة من حيث النسيج بحيث نخشى

أن تكون من الشعر المنحول ، فإنها لو أضيفت إلى رجل كالبوصيرى
لقبلت لما يغلب عليها من الرقة واللين .

ولا نظن أن الدكتور — رحمه الله — نسى ما وصف به شعر
حسان ، وإنما نرجح أنه لم يقبل ما قيل في وصف هذا الشعر من
اللين ، وأيا ما كان ، فإن الواقع كان كذلك ، وذلك أن شعر حسان
لان بعد الإسلام ، وقد ووجه حسان نفسه بهذا فقليل له : لان شعرك ،
أو هرم في الإسلام ، يا أبا الحسام . فأجاب : إن الإسلام يحجز
عن الكذب ، والشعر يزينه الكذب .

وقد نضيف إلى ما قاله حسان أن الرجل تقدمت به السن فليس
الشعر الذى يقال فى سن المائة مثلاً كالشعر الذى يقال فى سن الثلاثين
أو ما يقاربها .

وربما كان أطيب ما نختم به هذه الكلمة أن نذكر أبياتاً من
جيد رثائه لنبينا — صلى الله عليه وسلم — :

لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة	عشية علوه الثرى لا يوسد
وهل عدلت يوماً رزية هالك	رزية يوم مات فيه (محمد)
فبكى رسول الله يا عين عبدة	ولا أعرفنك الدهر جمعك يجمد
وما فقد الماضون مثل «محمد»	ولا مثله حتى القيامة يفقد

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين ، ورضى عن حسان وعن
كل صحابة رسول الله .

البوصيرى

أمام مداح الرسول غير منازع ، فله ديوان أكثر ما فيه من الشعر
فى مدح إمام الأنبياء محمد بن عبد الله — عليه صلاة الله وسلامه —
وقصيدته (البردة) و « الهمزية » مشهورتان .

وقد كان هما ولسائر شعره فى المديح أكبر الأثر فىمن جاءوا
بعده من الشعراء الذين أسعدتهم حظوظهم فمدحوا الرسول .

ويكفى أن أكثر من تسعين شاعراً خسوا البردة ، وأن عدداً غير
قليل عارضها ، ومن هؤلاء فى عهد نهضتنا الحديثة محمود ساي
البارودى وأحمد شوقى .

وقبل أن نمضى فى الحديث عن مدائح البوصيرى نلقى قليلاً من
الضوء على حياته ، وشعره بعامة .

محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى ، هذا إسم هذا الشاعر ، أما
كنيته فهى أبو عبد الله ، وأما لقبه فهو شرف الدين^(١) .

(١) فائدة :

فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٦٢ .

قال مؤلفه ابن تغرى بردى ، معلقاً على تليق أبى سعيد بن ماكولا وزهر
جلال الدين البهيمى بعم الدين : (وهذا ثانى لقب سمعناه من اسم مضاف إلى الدين ، =

وصنهاجة التي ينتمى إليها إحدى قبائل البربر ، وكانت تنزل في الصحراء ، جنوبي المغرب الأقصى .

أما بوسير فهي قرية من قرى محافظة بنى سويف ، وقد ولد بقرية يقال لها (دلاص) وهي - أيضاً - من قرى بنى سويف ، وكان أحد أبويه من بوسيرى ، والآخر من دلاص ، فركبت له نسبة منهما ، فقليل (الدلاصيرى) ، ولكن هذه النسبة لم تشتهر .

وقد انتقل في سن مبكرة إلى القاهرة ، وتعلم العربية والأدب على مشيختها ، وكان من حسن حظه أن امتدى إلى الشيخ أبى العباس المرسى حين رحل إلى الإسكندرية ، وكان المرسى قد وفد إليها مع شيخه أبى الحسن الشاذلى .

وفي هذا الجو الصوفى نشأ البوصيرى ، وفي نهاية القرن السابع الهجرى توفى ودفن بأزاء قبر ، أستاذه المرسى بمدينة الإسكندرية .

= وأول ما سمعناه من هذه الألقاب لقب بهاء الدولة بن بويه (ركن الدين) .
قلنا : لعل ذلك كان تعظيماً في حقه ؛ لكونه سلطاناً ، فيكون على هذا الحكم هو أول لقب لقب به في الإسلام . والله أعلم) .

(ومن يومئذ ظهرت الألقاب ، وتفاقت فيها العجم ، حتى أنهم لم يدعوا شيئاً إلا وأضافوا الدين له ، حتى اشتهر ذلك وشاع ، وسمى به كل أحد ، حتى الأسامة (أظنه يقصد المسيحيين) ، فهم من يسمى جلال الدين ، وسعد الدين ، وجمال الدين فلا قوة إلا بالله) .

(وحسب المغاربة في حقهم من يلقب بهذه الألقاب . وأنا بالله أحلف لو ملكت أمرى ما لقيت بجمال الدين ولا غيره ، وأكره من يسمي بذلك ، ولا قدر على تغيير الاصطلاح) . ١٠١ . كلام ابن تفرى بردى .

وقد تقلب البوصيرى فى وظائف عدة ، وأشهرها مباشرة الشرقية ،
ويبدو أن مرتبه لم يكن كافياً ، فكان يكثر من الشكوى ، ومن كثرة
العيال .

وكانت له عين بصيرة نافذة ، فأخذ يدرس بيئته ، ويتعرف على
خفاياها ، ولم يكتف فى نفسه شيئاً مما رأى ، فقال الشعر يعبر به عن
مجتمعه ، ومن ذلك قصيدة له مشهورة فى نقد الموظفين . منها :

نقدت طوائف المستخدمينا فلم أر فيهم رجلا أميناً
فكتاب الشمال هم جميعاً فلا صحبت شمامهم اليميناً
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا بهم فكأنما سرقوا العيونا
وفى القصيدة ذم القضاة ، ورماهم بأنهم يخونون الأمانة ، وأنهم
يتأولون نصوص الشرع ليصح لهم أن يأخذوا ما يريدون من غير وجه
حق .

تفقهت القضاة فخان كل أمانته ، وسموه الأميना
وما أخشى على أموال مصر سوى من معشر يتأولونا

وقد ذكر فى القصيدة الحجج الواهية التى يتنوع بها الخائنون من
رجال الأديان الثلاثة .

فالمسلمون يقولون أن لنا فى هذه الأموال حقوقاً ، ونحن أولى بها ،
والأقباط يقولون : نحن ملوك مصر ، وغيرنا مغتصب لحقوقنا ،
أما اليهود فأمرهم عجب :

وحلت اليهود بفعل سبت لهم مال الطوائف أجمعينا

وأخيراً يذكر رجلاً يعتبره شريكاً لهم ، وأظنه القاضي :

وما ابن قطيعة إلا شريك لهم في كل ما يتخطفونها

ثم أخذ يصف ابن قطيعة هذا ، وكان مما قال فيه أنه كان مشغولاً
بتحصيل الثبن ، فأصبح مشغولاً بتحصيل الذهب :

وأصبح شغله تحصيل تبر وكانت راؤه من قبل نونا^(١)

وربما كان يقصد أنه كان قبل ذلك كالأنعام ، لا هم لها إلا أكل
الثبن ، فأصبح بعد أن ولى ما ولى يعمل عمل الأناسى ، يغتنى ويقتنى ،
ولكن عن طريق الخور والظلم .

وهو — في هذه القصيدة — يستعدى الوزير على هؤلاء الخونة ،
الذين أظهروا نسكاً وتزهداً ، في حين يأكلون السحت . وذلك
حيث يقول :

نلستك معشر منهم وعدوا من الزهاد والمتورعينا
وقبل لهم دعاء مستجاب وقد ملأوا من السحت البطونا

والذين كتبوا عن البوصرى ينظرون إلى هذه القصيدة نظرة خاصة
وقد كانت مشهورة في زمنها ، ويعلل بعض المتأخرين شهرتها بموافقتها

(١) أى راه التبر ، وإذا كانت الراء نونا فإن التبر يكون ثبناً .

لنفسيات الجماعة التي تحقد — منذ قديم — على الموظفين ، وتتمسك لهم المثالب والمعائب ، ويرى أن لها قيمة تاريخية ؛ لاحتوائها على ما كان بين طوائف الأمة آنذاك من خلاف ، وعلى ما كان في الإدارة الحكومية من عيوب .

ولكن قيمتها عندى — ولذلك أطلت النظر فيها — فى دلالتها على نفسية البوصيرى ، فالرجل وإن لم يكن فى وقت نظمها وإذاعتها ذا مكانة فى التصوف ، فهى تدل على أن روح صاحبها تميل إلى العفة والنزاهة ، وتألم لما يشيع بين الناس — وبخاصة الموظفين — من خيانة ، بل وصولة تبيح لبعضهم أن يتزيا بزي الزهاد ليصل إلى مأربه من أكل السحت ، والتمتع بشهوات الحياة ، كما تألم لشهاد الزور الذين يضللون القضاة . .

وقد كان الرجل ذا عيال ، ووظيفته لا تكاد تكفيه وتكفيهم ، فلو أنه استجاب لهذا الوسط الذى عاش فيه ، يصنع صنيعه ، وكفى نفسه وأسرته ، ولكنه — على ما أعتقد — كان منذ شبابه يحمل نفساً أبية ، ويخضع فى سلوكه لضمير دينى متيقظ ، وهذا ما يدلنا على أنه كان يسير فى طريق قويم على الرغم مما رويوا عنه من شعر فيه ما لا يرتضى .

ولعل تفتح شاعريته على (البردة) و (الهزمية) و (معارضة بانث سعاد) يدلنا على أن معدن نفسه لم يكن زيفاً فى يوم من الأيام ،

فلا يمكن أن ينتقل الإنسان فجأة من متبطل إلى متصوف ، يقول أصدق الشعر وأعذبه ، وأدله على الإخلاص في مدح الرسول .

* * *

والذى وصلنا من شعره — وديوانه مطبوع — يجعلنا في حيرة من أمره ، فهو في غير المدائح شاعر دون الوسط : أسلوبه نازل إلى حد ما ، ومعانيه يضؤل فيها الخيال ، وألفاظه — في بعض القصائد — أشبه بألفاظ الحياة العادية ، أما في المدائح فنرى الجزالة والأحكام ، واللفظ القوى ، والمعنى الرائع ، والخيال البارع البديع .

ولذلك ، فإنى أرجح أن في شعر البوصيرى حلقة مفقودة ، فيبدو أن شعره الضعيف قيل في أيام الحداثة ، وفي مبدأ قوله للشعر ، وأيام أن كان مباشراً في الشرقية ، يعدو ويروح مع الموظفين والعمال ويسمع منهم ، ويشعر لهم . أما الشعر الذى يتمنى كل شاعر مبرز أن يكون له نصيب منه فقد قاله في أخريات حياته فلا مندوحة من أن نفترض أنه كان بين هذين النمطين شعر لم يصل إلينا ، وأن هذا الشعر المفقود كان الوسط في شعره ، وكان مرحلة من مراحل تطور شاعريته .

والنقاد يقوون — وقد نسب هذا لحسان بن ثابت كما أسلفت : — أن الشعر يقوى في الشر ، ويضعف في الخير ، ولكن شعر البوصيرى ينقض هذه النظرية . فهو جيد غاية الجودة في المدائح النبوية ، ردىء إلى حد كبير في غيرها من الأغراض .

وبعض الكاتبين يرى أن السر في اختلاف النسخ في شعر البوصيرى أنه حفل بالجزالة ، وحسن استعمال البديع في مدائحه النبوية ، في حين لم يحفل بهذه المزايا في غيرها .

وهو رأى بنى على أن في قبرة الشاعر أن يتخلى عن طبعه ، أو يرتفع عنه كما يريد ، وليس سر الروعة في المدائح راجعاً إلى الصنعة ، وإنما هو راجع إلى الطبع ، والذي يروع في مدائح البوصيرى ليس نسجه فقط ، وإنما تلك المعاني الجميلة ، وذلك الروح النضائي ، وما آزرهما من الشعور الصادق ، والحكم العالية الرفيعة .

وبعض آخر يرى أن السر في ضعف ما ضعف من شعر البوصيرى هو طول قصائده ، وهو رأى غريب ، فالطول في قصائد البوصيرى هي مدائحه ، ومقطعاته ضعيفة ، وكذلك قصار قصائده .

ويرى فريق ثالث أن السبب يرجع إلى موضوع القصيدة ، فإذا كانت هزلاً ، أو دعاية ، أو شكوى ، أو نقداً نزل أسلوبها إلى مستوى المجتمع ، وإذا كانت مدحاً أو حكماً علت وأحكمت .

وهذا تعليل أشبه بالوصف منه بالتعليل ، فهو يصف ما وصل إلينا من شعر البارودي ، وهو كما قال ، المدائح والحكم رائعه ، وما قيل في الأغراض الأخرى دون ذلك ، ولكن ما السبب ؟ .

على أن طبيعة الشاعر لا تختلف هذا الاختلاف البين بسبب اختلاف موضوعات القصائد ، فالشاعر طبيعته واحدة سواء جلد أو هزل . .

نعم . لكل غرض من الأغراض أسلوبه الذي يلائمه ، ولكن الطابع العام للشاعر لا يتخلل عنه عن الأسلوب في أى غرض من الأغراض .

ونعود إلى مدائح البوصيرى فنؤكد ما أسلفناه من أنه إمام المداحين ، وهذا ليس رأيي ، بل رأى أمير الشعراء أحمد شوقي ، إذ يقول :

المادحون وأرباب الهوى تتبع لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم
مديحه فيك حب خالص وهوى وصادق الحب يملئ صادق الكلم
وإذا كان لنا أن نميل إلى رأى بعد الذى قدمناه فى تحليل جودة
مدائح البوصيرى فهو ما يصرح به شوقي فى البيت الثانى : (حب خالص) .
والرجل يمتاز — حقاً — بالإخلاص ، وفيه روحانية قلما نجدها
عند غيره من الشعراء .

نعم . سبقه الشاعر الخب ، سلطان العاشقين — كما يسمونه — أبو حفص عمر بن أبى الحسن المعروف بابن الفارض ، ولكن هذا شهر بالحب الإلهى ، وقد شغل أطول قصائده بالحديث عن حياته الروحية ، وبما ملك عليه نفسه من حب الذات الإلهية .

أما بقية قصائده ففيها الحديث عن الحب ، وعن الخمر ، ولكنه — على ما هو مشهور — يعنى الحب الإلهى ، والحمرة الإلهية ، وليس له فى مديح الرسول إلا التزير اليسير .

ومن ذلك قصيدة له ميمية ، وقد ذكر بعض الكاتبين أن البوصيري
تأثر بها ، ويستدل على ذلك بموافقة بعض أبيات من شعر البوصيري
بعض أبيات من هذه القصيدة ، ولكن شتان بين ميمية ابن الفارض
وبردة البوصيري .

ويقول الدكتور زكي مبارك : وأغلب الظن عندي أن البوصيري
استأنس عند نظمها — يعنى البردة — بميمية ابن الفارض ، ودليل ذلك
— عنده — تشابه المطلعين ، يقول ابن الفارض :

هل نار ليلي بدت ليلاً بذى سلم
أم بارق لاح في الزوراء فالعلم
أرواح نعمان هلا نسمة عرضت
وماء وجرة هلا نهلة بفم

ومطلع بردة البوصيري :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم
فلو سلم ، وهبوب الرياح ، وإمضاض البرق مما اشترك فيه الشاعران ،
مع وحدة الوزن والقافية .

يضاف إلى ذلك أن ابن الفارض قال :

يالائماً لآمني في حبه سفهاً كف الملام فلو أحبت لم تلم

فتابعه البوصيرى ، فقال :

يالأنمى فى الهوى العذرى معذرة منى إليك ولو أنصفت لم تلم
وكان شوقى أقرب إلى بيت ابن الفارض حين قال :

يالأنمى فى هواه والهوى قدر لو شفتك الوجد لم تعذل ولم تلم

وإذا كان الدكتور مبارك اكتفى بأن البوصيرى استأنس بميمية
ابن الفارض فإن بعض الكتابين يجزم بأن البوصيرى تأثر فى بودته
بقصيدة ابن الفارض .

ولا أرى أن لابن الفارض ، وبخاصة ميميته أثراً واضحاً فى قصيدة
البوصيرى على الرغم من هذه الاتفاقات التى ذكرها الدكتور زكى
مبارك ، فالبوصيرى أتى بمعان كثيرة لا ظل لها فى قصيدة ابن الفارض ،
فهذه لا تعدو مقدمة صغيرة ليس فيها إلا الحنين إلى أماكن فى الحجاز ،
وإلا تأكيد لحبه الذى لم يحل عنه :

ماحلت عنهم بساوان ولا بديل ليس التبدل والساوان من شيمى
وهو يتحسر على أيامه بالخيف :

أهاً لأيامنا بالخيف لو بقيت عشرأ ، رواها عليها كيف لم تدم
هيات ، وا أسفى لو كان ينفعنى أو كان يجدى على مافات.واندى

هذه هى كل المعانى التى تضمنتها قصيدة تبلغ عشرين بيتاً .

وكل ما يمكن أن يقال أن بين قصيدة ابن الفارض ومقدمة قصيدة البوصيري بعض التشابه ، وحتى هذا القدر ليس مسلماً ، فيكفي أن ننظر في المعاني الرائعة في مقدمة البردة لنحكم بأن ابن الفارض لم يحجم حولها ، أو على وجه الدقة : لم تحجم هذه المقدمة حول قصيدة عمر بن الفارض .

وهذه بعض أبيات من غزل البردة :

فما لعينيك إن قلت : اكفها همتا	وما لقلبك أن قلت : استفق يهيم
أحسب الصب أن الحب منكتم	ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل	ولا أرقى لذكر البان والعلم
فكيف تنكر حباً بعد ما شهدت	به عليك عدول الدمع والسقم
وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى	مثل البهار على خديك والغم
نعم . سرى طيف من أهوى فأرقى	والحب يعترض اللذات بالألم

وربما قيل إن البوصيري تأثر بابن الفارض في تكوين شخصيته الصوفية ، وهو قول غير بعيد عن الصواب ، فما نطن أن شاعراً كبيراً ومتصوفاً نأبها كالبوصيري يصحب كبار رجال الطريق ، ويجهل شعر ابن الفارض ومواجيدته ، وقد عاش ابن الفارض في مصر ومات والبوصيري في ريعان الشباب . فإذا كانت وفاة الأول في سنة ٦٣٢ هـ ، وولادة الثاني في سنة ٦٠٨ هـ كان معنى ذلك أن سن البوصيري كانت عند وفاة ابن الفارض أربعاً وعشرين سنة ، ولم يكن مكان ابن الفارض مجهولاً حتى نقول أن البوصيري كان يجهله .

شوق يتحدث عنه بشائر المولد النبوي

وماله الحرب عند البعثة

أثبت والناس فوضى لا تلم بهم إلا على صنم قد هام في صنم
كما يتحدث عن الإسراء والمعراج ، وعن الهجرة ، ثم يعود
فيفضل الرسول على البدر حسناً وشرفاً ، وعلى الجبال والأنجم
والليث ، ثم يشبه وجهه الشريف ببدر الدجى ، ويذكر يتمه — صلى الله
عليه وسلم — وزهده في الدنيا ، وجوده ، وأثر شريعته في الناس ، ويعلل
حروبه في آيات قوية صافية ، ويذكر الخلفاء الراشدين ، وحسن
بلائهم في نشر الإسلام ، ثم يصلى على النبي وآله ، ويحتم هذه الآيات :
يارب هبت شعوب من منتهى واستيقظت أمم من رقدة العلم
سعد ونحس وملك أنت مالكة يدل من نعم فيه ومن نقم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته أكرم بوجهك من قاض ومنقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا ولا تزد قومه خسفاً ولا تسم
يارب أحسنت ببدء المسلمين به فتمم الفضل وامنح حسن مختم
وإذا كان شوق ختم قصيدته بهذا المعنى ، تخلف المسلمين ،
وتفكك الأواصر بينهم ، فقد ألم به أيضاً في أواخر الهيمية إذ يقول :
أدعوك عن قوى الضعاف لأزمة في مثلها يلقى عليك رجاء
أدرى رسول الله أن نفوسهم ركبت هواها والقلوب هواه
متفككون فما تضم نفوسهم ثقة ولا جمع القلوب صفاء
رقدوا وعزهم نعيم باطل ونعيم قوم في القيود بلاء

ولعل حال المسلمين الآن أسوأ مما كانت عليه في أيام شوق ، وإن كانوا آنذاك في (القيود) . فإن مأساتهم اليوم أشنع وأقطع ، فليسوا فقط (متفككن) وإنما يحارب بعضهم بعضاً ، ويتربص بعض ببعض الدوائر ، حتى أطمعوا فيهم أعداءهم ، وجعلوا للخلاء عليهم سلطاناً .

وأى هوان ، وأى هوى ، وأى فقد للنقة من أن يصبح المسلم عدواً لأخيه المسلم ، لا يكتفى بأن يتخلى عنه وقت الشدة ، بل يحاربه ، أو يستعد لحربه ، وفي أيام شوق كان شعراء يرددون معنى جميلاً ، هو أن أى مصاب يلحق بقطر عربى يشيع الحزن والأسى في كل البلاد العربية والإسلامية ، فإذا بكت دمشق بكت لبكائها بغداد والقاهرة وعمان والرياض .

أما في أيامنا هذه — وبكل ما تتحمل النفس الإنسانية من أسى وأسف — نرى بعض المسلمين يظهر الشماتة إذا حلت كارثة بمسلمين آخرين ، بل إن بعض الأقطار الإسلامية ، تحارب قطراً آخر ، أو تعين على حربه ، فأى تفرق ، وأى تفكك ، وأى تخاذل أسوأ من هذا التفرق والتفكك والتخاذل .

وإننا لنلجأ إلى الله — وحده — جلت قدرته ، أن يعيد المسلمين إلى صوابهم ، وأن يهديهم إلى أقوم الطرق ، وأن يجمع كلمتهم على الحق ، وألا يصدق فيهم قوله : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون »^(١) .

(١) سورة الأنعام الآية : ٦٥ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
كلمة	٣
الشعاع الأول	٥
ميلاد أمة	٨
فى ذكرى المولد النبوى	٢٠
شهر ربىع الاول	٣١
الأشهر الحرم فى كتاب الله تعالى	٤٣
عام الحزن فى حياة الرسول	٦١
من كذب على	٧٠
شاعر الرسول فى محنة (كعب بن مالك)	٧٧
مولد الرسول فى المدائح النبوية	٨٧
المدائح النبوية	١٠١
شعراء المدائح	١٠٩
حسان بن ثابت	١١٢
البوصيرى	١٢٣
شوقى يتحدث عن بشائر المولد و حال العرب عند البعثة)	١٣٤

رقم الايداع ١٩٨٢/١٦٥٩

الترقيم الدولى ٨-١٢٨-٢٤١-٩٧٧ ISBN

ميلاد الأمة المحمدية .. أمة الحق والتوحيد

الايمان بالله ورسوله والعمل الصالح هما الأساسان
القويان اللذان قامت عليهما هذه الأمة ، وكانت بهما خير
الأمم ، فبالايمان بالله كانت الأمة الإسلامية أمة عزيزة ،
لا تذلل لأحد ، لأنها لا ترى في الوجود أحدا (أكبر) ، وإنما
الأكبر هو الله ، ولا أحد سواه ، وكان أفرادها هم الأعلون
لأنه لا ينبغي أن يكون أحد أعلى من يعتصم بحبل الله .

تلك هي الأمة التي كان مولد محمد — صلى الله عليه
وسلم — أيدانا بمولدها ، وكان محمد بصفاته العالية ،
وأخلاقه الرفيعة — القدوة لها ، والأسوة — وقد نشأت أمة
كاملة منحت العالم في تاريخها الأول أفضل ما في البشرية
من العدل والاحياء والمساواة ، وظلت كذلك حقا طويلة من
التاريخ ، وإذا كان شيء من الضعف والوهن قد تسرب إليها
فإن ذلك عارض لا بد أن يزول ، لأن بين يديها ما يعيد لها
مجدها ، عندها تماليم هذا الدين الذي ولدت يوم
تعاليم إن تبلى .

Bibliotheca Alexandrina



0339567

عالم



القرش ١٥